الفصل الرابع

مختارات من أدبه[1] :

مختارة من وادى الفريكة

الريحانيات مجموعة مقالات وخطب وشعر منثور. ووادى الفريكة هى المقالة الأولى من الجزء الأول الذى طبع سنة ١٩١٠. وقد نقلت الصحف والمجلات هذه المقالة مراراً لما فيها من صدق الوصف وحب الطبيعة والصور الأدبية الفاتنة التى استوحاها الكاتب من قلب الوادى.

فى صباح يوم من الأيام التى تقف حائرة بين الخريف والشتاء لبّيت دعوة الوادى. خرجت من بيتى بمعطف مشمع وأخذت أقفز عن الربى وأدبّ من تحت الصخور حتى وصلت إلى قلب الغاب. نزلت لأ تفقد الوادى بعد أن اغتسل بسحابة الخريف الأولى. هبطت على عادتى لا ترويحاً للنفس كما يقال بل ابتغاء الإلهام والفائدة: أجل أنا أقصد الوادى كما يقصده الفلاح، ولكن فأسى ومنجلى يختلفان شيئاً عن فأسه ومنجله وأحمالنا ونحن عائدان تختلف كثيراً بعضها عن بعض. على أن حطب الغاب يفيد فى هذه الأيام أكثر من حطب الخيال والفلاح هو الفيلسوف الحقيقى، ولكن ذلك قلما يهمنى. قد انحدرت إلى الوادى ووقفت على صخر يشرف على النهر وتأملت فعل العواصف والأنواء الليلة البارحة — تلك الليلة التى دخل إله الشتاء بعروسه الطبيعة. كيف لا! ومياه النهر والسواقى حمراء كالدم .... وقفت هنالك مبتهجاً فأحسست بأن روحى انفصلت عن جسمى وطارت فوق الأشجار البليلة وفوق الصخور الشهباء فى الصيف، السوداء بعد الأمطار. طارت وطار معها ما تراكم على رأسى وقلبى من الأفكار والخيالات والأمانى، طارت مسرعة صامتة كما يطير السنونو والحسون فى

(١) كما اختارها أخوه الأديب المفكر الأستاذ البرت.

هذا الفصل . شعرت بأن روح الوادى قد اتحدت فىّ وروحى قد اتحدت بالوادى فأنا إذن والوادى سواء : فى نفسى ما فيه من الظلال والخيالات والكهوف . فى نفسى ما فيه من الصخور الشامخة والمنحدرات الهائلة والسواقى الفائضة والأنهر الجارية . فى نفسى ما فيه من العصافير والجنادب والنسور ومن الهوام والذئاب أيضًا أيها القارئ البعيد القريب .

صعدت قليلا وجلست تحت خرنوبة غضة وتنفست متنشقًا هواء الأحراج المنعش فكاد يكون لنفسى صدى فى حفيف الأوراق . فى ظل هذه السكينة يكاد المرء يسمع خفقان قلبه . وعند توقلى فى الصخر سمعت صوت رفرفة العصافير فالتفت إلى جهة الصوت وإذا بسرب كبير من السنونو فرّ من أمامى ففكرت فى نفسى قائلاً :

لو كان للطير أن يقرأ الأفكار لما كان هذا السرب يفرّ الآن من وجهى بل كان يجيئنى مغرداً فأقبله ويقبلنى ويسير بعدئذ كل منا فى سبيله . ولكن إخوانى البشر لم يعوّدوا الطير مثل هذا والسنونو لم يقرأ شيئًا حتى اليوم مما أكتبه . إلى الآن لا يعرفنى . وهل يلام على ذلك والإنسان نفسه لم يزل يعجز عن فهم ما انطوى عليه الإنسان ؟ .

فى الباب

وهذا أيضاً المقال الأول من الجزء الثانى من الريحانيات الذى طبع سنة ١٩١١ . وفى هذا المقال يكشف لك الكاتب عن أمنيته فى الحياة ، تلك الأمنية التى أخلص لها الأمين وجعلها دستوراً له حتى الممات .

لا المجد ولا الشهرة أمنيتى القصوى . ولا الجاه ولا الثروة ولا السيادة ولا العظمة وإنما أمنيتى الجوهرية الأولى هى أن أكون بسيطًا فى أعمالى . صادقًا فى أقوالى . مستقيمًا فى مبادئى وآرائى . فطريًا فى تصرفى وسلوكى . حرًا فيما أحب وما أكره ؛ وبكلمة أخرى أود أن أكون دائمًا نظيف الجسم نزيه العقل والقلب بعيداً عن التصلف

والزخرف والعجب والمصانعة . بعيداً عن الجبن والخوف والتذبذب . بعيداً عن الخجل الذى يذل النفس ويميت الحقيقة . بعيداً عن الكذب والجربزة والمداهنة والرياء . علىّ أن أقتبل ما يقابلنى من الصعوبات فى مسالك الحياة باشًّا جادًّا ثابتًا صابراً متجلداً . علىّ أن أناهض الفساد والضلال فى الناس وألاّ أكره أحداً من الناس . أود أن أعيش دون أن أبغض أحداً ، وأحب دون أن أغار من أحد . وأرتفع دون أن أترفع على أحد . وأتقدم دون أن أدوس من هم دونى أو أحسد من هم فوقى . هذه هى سنتى وللغير أن يتخذوا لهم سنة توافقهم . للغير أن يسلكوا ذات المسلك إذا شاؤوا واستطاعوا . ليس من شأنى أن أتداخل فى شئونهم ولا أن أرشدهم منذراً أو أعظهم متأمراً متهدداً . علىّ أن أعيش صادقًا مسالمًا مستقيمًا . وللناس أن يعيشوا كما يطيب لهم . لا أحب أن أنصح أحداً متى كانت نصيحتى بنت فكرة زائلة لا بنت حقيقة دائمة . ولا أن أنضم إلى حزب من الأحزاب . (مراقبة) أو جمعية من الجمعيات مهما كانت صبغاتها . ومهما تسامت غاياتها . ولا أن أساعد أحداً لا يعمل فى مساعدة نفسه . وإذا كان فىّ ما يلهم الناس إلى الخير ويرفعهم درجة واحدة فى سلم الرقى العقلى الروحى أحب أن أظهره بالمثل والإشارة واللطف لا بالإنذار والوعيد والتأمر . أحب أن تشع حياتى ولا أحبها أن تفرقع . أحب أن تكون كأحد الكواكب السماوية ، لا كسهم من الأسهم النارية .

المندوب الأسمى

هى ذى صيحة من صيحات الريحانى الداوية يلقيها فى آذان أبناء بلاده لتوقظهم وتثير نفوسهم ، وتدفعهم إلى الجد والعمل والنضال . وما كان أبلغ هذه الصيحات تقذف بها نفس الكاتب المتأججة ! والمقال هو فصل من الجزء السادس الغير المطبوع من « الريحانيات » .

رأيته فى ساحة المدينة ، وسمعته يخطب فى الناس ، فذكّر وقال : أنا المشيّد ، أنا المؤيد ، أنا أخو الخادم والسيد .

ورأيته يمشى فى الحقول ، وسمعته يقول : أنا الحارث ، أنا الزارع ، أنا الجانى والشارع .

وها هو يصعد الجبال ، وينشد نشيد الأبطال : أنا الفاتح أنا المعبّد ، أنا الحافظ والحامى . الصخور والوعور تُذَلَّل أمامى ، والقُنَن والسُّحب مطايا أحلامى .

وها هو يسير على موج البحار ويرسل صوته ترتيلاً : والمعجزات ، ورب الكائنات إن الأرض لمن يسعى ، وإن لمن يسعى السموات .

وها هو يطير فى الفضاء المغيم ، ويهتف هتاف من ظفر بالنعيم : تحت ناظرى يذوب الضباب وأمامى تتبدد السُحب ، وحول جناحى تنبثق الأنوار .

هو الفكر العامل الغلاّب ، هو الروح الشامل الوهاب، هو الناثر ، الناشر ، الثائر على الدوام ، يشعل النار ويشحذ السهام .

هو عدو اليأس والجمود ، ومفكك السلاسل والقيود ،

يجدد أيامه كالربيع ، ويدأب ، ويبدع ، ويذيع .

هو الموقظ فى اليائسين ، روح اليقين ، وهو المعزّى ، وهو المعين .

هو الحامل المعول والمشعال ، ينير سُبل الحق ، ويهدم صروح الضلال .

هو المرشد ، والرائد ، والدليل ،

هو الجبل المشرق ، وهو الروض العاطر الظليل :

* * *

هو مندوب الحياة من لدنه تعالى ، تباركت آياته ومعجزاته .

هو المندوب الأسمى فىّ وفيك ، وعلىّ وعليك ، فاستمع إليه :

إن كنت مكتئبًا ، فلا تكن يائسًا .

وإن كنت يائسًا ، فلا تكن جامداً .

وإن كنت جامداً ، فاذكر أنك خُلقت للخلود .

فهل تريد أن تُخلَّد كالجلمود[1] ؟ .

إن المذلّة لفى الحياة الجامدة ، لا فى الموت .

وإن الموت على رأس الجبل لَنور يضىء .

---

(١) الجلمود : الصخر الصلب القاسى .

فإن مت فى الغور ذليلاً ، عشت خالداً فى المذلّة .

وإن عشت حرًّا كريمًا ، ومت حرًّا كريمًا ، كانت الحرية ركنًا ، والكرامة نوراً ، لخلودك السعيد .

* * *

أنا المندوب الأسمى عليك وفيك ، فاستمع إلى :

كن مغامراً ، وكن جسوراً ، وكن أبيًّا ،

فإن الله يحب المغامرين ، الجسورين ، الأباة .

وكن مجاهداً ، وكن مثابراً ، وكن فى الحق عتيًّا ،

لأن الله يحب المجاهدين ، المثابرين ، العتاة .

* * *

أنا المندوب الأسمى فيك ،

أنا الرسول الأقدس إليك .

ولقد جئتك من العالم الأعلى ، والبلد الأقصى [1] ، من الجبل المقدس جئتك ، ومما وراء الأفق الأنور ،

وهذه حقائبى وقد كُسيتْ بالغبار الذهبى والفضى ، غبار السماء ، وغبار الجبل والبيداء .

وهى ملأى بالكنوز الخالدة .

إنى أحمل إليك هدية من الشمس ، وأخرى من القمر .

وأحمل إليك سلام الجوزاء والمجرّة ،

وذكرى الفيض الشامل العجيب المُثبت الأزلَ والخلودَ فى سلسلة الحياة .

وأحمل إليك رسالة من رب الكائنات ، كلمتها الأولى : إلى الأمام ، وكلمتها الأخيرة : إلى الأمام على الدوام .

* * *

(١) الأقصى : الأبعد .

وقد جئتك بغيرها من الهدايا الغالية الخالدة .
إن فى هذه الحقيبة بحراً من شذا الورد والياسمين ،
ومن طيب الرياحين ،
ومن بهجة المرو ج والبساتين ،
وفى هذه الحقيبة فيوض من سكينة الغابات ،
ومن طمأنينة الربى ،
ومن شمم الرواسى [1] ، وكرم الأودية ،
ومن عبير الصنوبر ، وبخور البُطم ، ونفح الغار ،
ومن عنبر العصفر والوزال ، وسحيق المسك والجلنار .

• • •

هل أنت بائس مكروب ؟
هى ذى هدية الفجر إليك ، وهى ذى هدية المغيب —
بحراً من النور الهادئ فوق بحر من الألوان الفاتنة ، فوق بحر من ذوب اللُجَين ، فوق كنوز من اللؤلؤ والمرجان ، والزمرّد والياقوت ، وقد صُهرت كلها فى بوتقة الشمس .

• • •

هل أنت بائس محزون ؟
إن فى هذه الصندوقة موسيقى الحياة —
ألحانًا مطربة شجية ، وألحانًا تضرم فى الدم ناراً قدسية ، وألحانًا تسكّن منك العصب والبال ، وألحانًا هى السحر الحلال .
جئتك بها من فم البلبل والهزار ،
ومن قلب السواقى والأمطار ،
ومن الجنادب فى الأدغال ، والأجراس فى الجبال ،

---

(١) شمم الرواسى : أعالى الجبال .

ومن صفير الرياح فى الأوديَة الندية ،
ومن هدير الأمواج على الشواطئ الذهبية .

* * *

إنى عدو اليأس ، ومعين اليائسين .
جئت أبعث فيك المرَح والحبور ، والهمة والنشاط والأمل والإيمان ، وحبَّ المغامرة والمغالبة .
جئت أقول لك إن الصحة والمال والبنين لأشياء تُذكر إذا ما ذُكر الجمال وحسن الحال .

ولكن أجمل منها الشجاعة وعزة النفس .
وأجمل منها الحرية ، والمثل الأعلى فى الحياة .
أجل . إن الورد فى وجنتيك ، لخير من الذهب بين يديك .
ولكن الكرامة والإباءة والجسارة هى خير من الصحة والمال .
بل أقول لك إن غضبةً لكرامة ، لخير من اليسر والسلامة .
وإن جنوناً فى سبيل الحق والحرية لخير من الرصانة والعبودية .
وإن عزًّا فى الممات لخير من حياة شاكية باكية ، تتوسد اليأس وتلتحف الخنوع .

* * *

فهل أنت ممن يتوسدون اليأس ويلتحفون الخنوع ؟
إن كنت كذلك ، وكان ما جئتك به باطلاً فى نظرك ،
فهاك المسدس وفيه كل ما تستحق — رصاصة واحدة لا غير .
إنما أقول لك أنا المندوب الأسمى فيك ، أنا الرسول الأقدس إليك ،
أقول لك الكلمة الأخيرة .
قبل أن تدفن الرصاصة فى صدرك ، فكر قليلاً ،
فكر فى خلودك بالمذلة .
ثم اشرب من الماء كأساً أو كأسين .

واخرج إلى العراء وامشِ ساعة أو ساعتين ،

امشِ مشية من يفر هاربًا من نار سارية أو ذئاب كاسرة .

بل مشية مفتون مجذوب ، مجنون — مفتون بفكرة أو خيال ، مجذوب إلى مهبط الوحى والكمال ، مجنون برب الطبيعة والجمال .

واذكر هدايای إليك .

أنشدها تجدها حولك وفيك .

فتعود إذ ذاك إلى بيتك وأنت رب نفسك ، ربّان سفينتك

تعود وفيك من الهمة والنشاط والمرح والحبور وقوة الفكر والإرادة ومن الثقة بالله وحبّ المغامرة والمغالبة ما يكفيك لتنقذ نفسك وتنقذ غيرك من غمرات اليأس ومن عبودية الخمول والخنوع .

ومن نقده :

الشعر والشعراء

يتبين لك فى هذا المقال المختار من الجزء الثالث من الريحانيات ، طبع ١٩٢٣ ، أن الكاتب طرق باباً واسعاً فى النقد وتحدى قيود الديباجة والوزن فى الشعر .

الشعراء اثنان شاعر قومه وزمانه . وشاعر العالم وكل زمان ، الأول يندر فى شعره ما يبقى شعراً إذا ترجم إلى لغة أجنبية . والثانى عكس الأول . وقد يجىء فى شعر هذا ما هو من طبقة شاعر قومه وزمانه . وقد تعلو صناعته على قريحته فى حالات للنفس يغلب فيها المكتسب على الفطرى . وقد يكون الشاعر الأول بعيد الإشارة علوًّا لا اتساعاً ، فينظر إلى الأشياء والأكوان من ذروة ، سماؤها صافية ولكن أفقها محدود صغير . كثير المضايق والسدود . فيرى أصول الأشياء ورؤوسها ولا يرى ما تشعب وامتد من أطرافها . وشعراء العرب ما عدا الفارض والمعرى من هذه الطبقة لأن فى شعرهم تغلب الصناعة الشاعرية الحقيقية . فيجىء ما ينظمونه شعراً عربيًّا فقط لا شعراً على الإطلاق .

أما الفارض وأبو العلاء فيكادان يعلوان على هذا . كل فى طريقته . وما تقيدت النفس فيهما بظاهر الأشياء الزائل أى بتقاليد القوم وروح الزمان . وقد يستغرب ذكرى هذين الشاعرين كأنهما صنوان وقد اختلفا طريقة ومذهبًا . على أنهما متشابهان عند من دقق النظر فى شعرهما وحياتهما تشابهًا جوهريًا جديراً بالاعتبار . ففى شعر الاثنين ما لا يختص بأمة واحدة من الأمم أو بزمن من الأزمنة . بل هو جامع شامل . سماؤه بشرية لا عربية . وزمانه لا هجرى ولا مسيحى . وفى حياة الشاعرين حيرة وورع يتناوبهما الشك واليقين فيعلو العقل فى « رهين المحبسين» على النفس ، وتعلو النفس فى شاعر السالكين على كل معقول ومحسوس . ويجوز لنا أن نقول : إن أبا العلاء من المتصوفين فى بعض حالاته كما أن الفارض فى بعض أطواره من الماديين . شعر أبى العلاء كالموشور صاف . ولكنه بارد . تنعكس فيه حقيقة الحياة فتتلون . فتحرق فتنير ما يعالجه من المواضيع . وشعر الفارض قبس من النفس نرى فى لهيبه أشكال أزهار من الحب جميلة وطيور ألفاظ تغرد حول عرش الأسرار .

وحقًا ما يقال إن الشعر من الشعور . ومن الشعور ما رق فسال . ودق فغمض . واشتد فاضطرم فأحرق فأنار . ومن الشعور ما هو مكتسب ومنه ما هو فطرى . فيغلب فى الأول التصنع وفى الثانى الهوى أو الهوس . وقد قال أحد الفلاسفة : إن أول الهوس الشعر وأحسن الشعر ما كان عن هوس وغرام . وعندى لا ينبغى أن يكون الشاعر . شاعر النفس . عاقلاً أو فيلسوفًا . فالهوس أو الهوى أو النزعات الشديدة إنما هى صوت النفس وتنهداتها فتشجى تارة وتطرب طوراً . وطوراً تزعج وتكرب . وفى كل حال إن نزعات النفس لهى ماء الشعر وغذاؤه وخمره . وكل شعر بدونها خاسئ بارد مشحوب اللون عليل . وفى هذه النزعات الشديدة لا يخضع الشاعر لشىء من أشياء العقل العادية السطحية فتظهر فى كل أقواله ونغماته فى مظهر طيه الدعوى التى يظنها الشاعر من لوازم الصناعة . ومن واجبات النبوغ . وقد تشتد هذه النزعة فى بعضهم حتى تصبح نوعًا من الجنون وتتشابه باطنًا فى من اختلفوا ظاهراً وشكلاً — فهوس

للفارض بالأسرار يتغزل بغوامضها. مثل هوس أبى العلاء بالعقليات وتغزله بالفناء والاضمحلال . ومثل ورع أبى العتاهية حتى أصبح الورع فى شعره نوعًا من الخبل . ولكن المبالغة طبيعة فى الشاعر لأن شعوره مجموع شعور الناس . وإن جاز لنا أن نشبه المجتمع الإنسانى بجسم بشرى يصح أن نشبه الشاعر بالجهاز العصبى لهذا الجسم المعنوى الحى . وأكثر الشعراء من هذه الطبقة أى إنهم شعراء قومهم وزمانهم .

أما الشاعر الكبير شاعر العالم وكل زمان فهو قلب العالم وعقله . فمن رقت شعوره هام كما يقال على وجهه أو بالحرى عام على وجه الأشياء فيتلهى بلطف أشكالها الظاهرة . ومن اشتدت شعوره غاص فى قعر البحار فجاءنا بشى من لؤلؤها ومرجانها . ومن دقت شعوره غمضت معانيه فشق فى الظلمات حتى ينتهى عند أنوار هى من النفس والفكر بمكان . لكل حقيقة شعاع أسود خفى . والشاعر الصميم من تمشى فى ظلال الحقيقة فتتبع أشعتها حتى النهاية فيكتشف حقائق أخرى هى من حقائق الحياة كالنور من الشمس. ولا أظن أن هذه المزايا كلها اجتمعت لشاعر واحد من شعراء العرب .

قل ما رق من الشعور للمتنبى وندر ما دق . أجل قد يتعمد أبو الطيب الغموض فيجيئنا بألغاز باردة . وفى شعر أبى العلاء لا نسمع للقلب صوتًا إلا ما كان تكلفًا واجتهاداً . وشعر الفارض غابة مدلهمة فيها غرائس حاملات شموعًا ضئيلة تركض أمامنا لتهدينا إلى جنات النعيم . ولكن الشموع تنطفىء فى وسط الغاب والعرائس ينشدن ويختفين فى الظلمات . وهذا أجمل ما جاء فى الشعر من وصف أسرار الحب وألوهية الأسرار . أما هذه المزايا الثلاث التى تقاسمها ثلاثة من شعرائنا فتجتمع كلها لشاعر اليونان هوميروس ولشاعر الإنكليز شكسبير .

الثورة الإفرنسية (*)

لو قصد المؤرخ أن يطالع كل ما كتب عن الثورة الإفرنسية فى اللغتين الإفرنسية والإنكليزية فقط لصرف زمانه كله فى المطالعة . بل إنه يموت دون أن يتمم هذا العمل الخطير غير المفيد، وقد انقسم مؤرخو الثورة إلى قسمين فمنهم من تحرى سرد الحوادث دون تحزب وتحيز، ومنهم من ألحق بكل حادثة نتفاً من فلسفته السياسية الخصوصية فندد بحزب ونصر آخر وكان إما ملكياً أو جمهورياً .

أما كارليل الكاتب الإنكليزى الشهير فقد حاد عن الخطتين فى كتابه المسمى « تاريخ الثورة الإفرنسية » فهو لا يطرئ الجمهوريين كهيوغو ولا يندد بهم كتيارس ولا يتحامل على الملكية بانتقاده أكثر مما لو كانت حكومة جمهورية . بل أراد فى تاريخه هذا أن يكون خالى الغرض غير متحيز لحزب من الأحزاب، ولكن نيته هذه الحميدة أوقعته فى الفتور الذى لا يسلم فيه صاحبه من عدم الاكتراث والشك، ومن كلف نفسه قراءة شيء من تآليف كارليل العديدة يبان له بعد قليل من التفكر أن الرجل عصبى المزاج أسير السويداء والتخمة وقد كان مصاباً بداء آخر أهم من الاثنين لا فائدة من ذكره فى هذا الصدد، وأن نتيجة هذه العوارض الخبيثة تتجلى دائماً فى كتاباته فى شكل من التهكم فظيع، والكتاب الذى نحن بصدده الآن مفعم بمثل هذا الازدراء والسخرية. ومعلوم عند الناقدين أن هذا الأسلوب لا يليق فى سرد التاريخ فهو كثيراً ما يشوش المعنى الحقيقى ويجعل القصة البسيطة متشعبة متلونة غامضة لا يستطيع القارئ فهمها دون أن يجردها من ثوبها المزخرف الكثير الألوان .

ليس من العدل إذاً أن يدعى هذا التأليف تاريخاً فهو خالٍ من الاعتقاد والرأى فى الحوادث التى يسبرها ، ومفعم بوساوس الفيلسوف العديدة التى تروقنا فى بقية مؤلفاته وتزعجنا فى كتاب دعاه تاريخاً .

(*) مقالة فى انتقاد تاريخ الثورة الإفرنسية تأليف توماس كارليل . من اختيار المؤلف .

كتاب يفتقر إلى روح جدية لترفعه من طبقة الخلقيات إلى طبقة العقليات . ولا نقدر أن ندعو الكتاب رواية لأن فصوله غير متصلة بعضها ببعض، إذ نقرأ كل فصل بذاته ولا تتولد فينا رغبة معرفة السابق واللاحق . فالكتاب إذاً مجموع مقالات متفرقة فى حوادث الثورة الإفرنسية ورجالها مسطرة على قرطاس الفتور والشك ببراعة التهكم والازدراء . ولا رأى خصوصى له فى تلك الحوادث وأولئك الزعماء ، سوى أنه ينصر تارة الكل وطوراً يقاوم الكل وهذه هى المزية التى خدعت الناقدين فى زمن كارليل فأنزلوا كتابه هذا منزلة التاريخ فى الوقت الذى يجب أن يعد فى كتب الخلقيات والوصف . كيف لا ومزاج المؤلف العصبى ظاهر فى كل صفحة من الكتاب فهو يقيس كل حادثة ويحكم على كل فرد له علاقة فى هذه الفتنة الهائلة بمقتضى هذا المزاج المركب من السويداء والتخمة والتهكم .

ولسنا من الذين ينكرون على الكاتب حق التهكم فى الأحايين ، إذ أننا نعتقد بصلاحية هذا الأسلوب ونعده من الظرائف الجدلية الفعالة التى يقاوم بها الكاتب كل سخيف سقيم . أما تهكم كارليل فحادٌ إذا خف وفظ إذا اشتد . وبينما نحن نطالع هذا الكتاب لم نتمالك أن أعدنا الفكرة إلى ما كنا نطالعه من نفثات فولتير[1] فإننا نرى بين مؤلفين نابغتين الواحد منهما لاتينى والآخر سكسونى شبهاً عظيماً من حيث أسلوب الكتابة السخرى الذى استخدماه فى مقاتلة الفساد والظلم والخرافة . ولكن أين تهكم الإنكليزى الكالح الجاف من تهكم الإفرنسى الوضاح المنير ، فهذا شبيه ببركان وذاك بمرض عضال مزمن . هذا يهلك ما يلقاه عاجلاً وذاك يدخل جسم الفساد والخرافة فيضعفه ويلاشيه تدريجاً . فضلاً عن أن تهكم كارليل خال من الذكاء الذى يزين تهكم فولتير ؛ كأن كارليل يرعد إذا غضب ويمطر ، وأما فولتير فكان يبتسم ابتسامته المشهورة ويسير بهدوء إلى غايته المطلوبة .

لنعد الآن إلى الكتاب الذى نحن بصدده . أراد المؤلف ألا يتحيز فى تاريخه وأن يكون مع الحق أينما وجد سواء كان فى جانب زعماء الثورة أو حول

---

(١) فولتير : كاتب وفيلسوف فرنسى من رجال القرن الثامن عشر .

عرش الحكومة القديمة . ولكن رغبته هذه أدت به إلى الفتور وعدم الاكتراث، والحق يقال: إن من لا يكترث لحادثة ما لا يستطيع أن يكتب عنها بدقة وإصابة وإخلاص . وكارليل يبحث عن أكبر حادثة فى العالم كما تبحث صحف الأخبار عن جريمة بيتية أو حادثة خصوصية يزول أثرها بعد أن يقرأ خبرها. فهو أبداً يفتش عن الحوادث الطفيفة التى كان الأحرى بها أن تدون فى الروايات الغرامية ويستنتج منها نتائج عمومية فاسدة ويصور من هذه صوراً خيالية فظيعة يسأم هو منها فى النهاية ويرفع يديه إلى السماء صارخاً : « أممكن أن تخلق ربى مثل هذا الشعب » .

وهل دعوة الإفرنسيس يا ترى خالية من الحقيقة وهل الثورة بذاتها نهضة فاسدة مضللة . وكيف يتملص الكاتب الفاتر المشكك من لوم الناس الذين حاربوا الثورة أو نصروها وبعض بنيهم وأحفادهم لم يزالوا حتى يومنا هذا يقاومون نتائجها وبعضهم ينصرونها . فلو كانت فاسدة على الإطلاق لامحت آثارها بعد مئة سنة من الزمان . نحن من الذين قالوا بعدم الاكتراث فى بعض المسائل الدينية التى لا تولد إلا النزاع والشقاق ، ولكن الوقت لم يحن لنبذ الحماسة السياسية والغيرة القومية فالمرء الذى لا يكترث لأمور حكومته يعد خاملاً ، والكاتب الذى لا يجد خيراً فى أى نوع من الحكومات يعد فوضوياً .

إن الحقيقة التى نفصلها عن أخواتها — عن أسبابها ونتائجها — وندونها معتزلة مستقلة كثيراً ما تغش المؤلف وتضر بالغاية الأصلية التى ينبغى أن تظل نصب عينيه . أما الثورة فى رأى كارليل فلا سابق ولا لاحق لها . هى فلتة اجتماعية لا سبب لها ولا نتيجة ، هى ضربة من ضربات الله هى مصيبة من مصائب الزمان ، هى بنت الاتفاق الذى نشأت عنه وماتت فيه ، هى حادثة معتزلة عن حياة البشر السابقة وعن مستقبلهم . إن عدداً من الناس ينتسبون إلى بلاد تدعى فرنسا قاموا فى وقت من الزمن فهاجوا وماجوا وحدث بينهم شغب عظيم وقتال من أجل قوانين ونظامات سياسية جمعوها فلقبوها بالقانون الأساسى . ومن ثم أهلك بعضهم بعضاً وختموا القانون بدمائهم وعادت الأشياء إلى عالم النسيان ، إلى ظلمات الزوال .

هذا كل ما يراه كارليل فى الثورة الإفرنسية فهو لا يكلف نفسه النظر فى البواعث التى من أجلها سفكت دماء الألوف من الناس . ومع ذلك هو يحاول إظهار الفاسد من الصحيح فيها . وكيف يستطيع الكاتب أن يحكم على أحوال أمة فى عصر لم يكن هو منه بعد أن أهمل التنقيب فى تاريخ الأمة الماضى وفى أخلاق الشعب وأحواله السياسية الزراعية والتجارية .

قد أوجب الأقدمون على المؤرخين إبداء الحكم فى كل قضية يدونونها وأقاموهم مقام القضاة وبعد أن يدون المؤرخ الحوادث بدقة وإخلاص يمحص الصحيح من الفاسد فيها ويستنتج من ذلك نتيجة تسوغ له وضع قاعدة أدبية فيها نور وهدى للأجيال المقبلة . وقد قام كارليل ببعض هذا الواجب فى تدوين الحوادث غير أنه أغفل أمراً جوهرياً هو ذكر السبب الرئيسى الذى نشأت عنه الثورة فهو لا يرى فيها عملا واحداً يستحق الشكر إذا ذكر ، ولكن حادثة واحدة فظيعة لا تقدح فى نهضة عمومية خطيرة وإن تعددت هذه الحوادث المرعبة ، فالنظر إليها وإلى أسبابها الأولية معاً لأمر واجب على المؤرخ .

إن صلب المسيح بالنظر إلى مصلحة الشعب الإسرائيلى عادل فى الظاهر ، وبالنسبة إلى البشرية هو جائر فظيع أما الحادث هذا وحده فلا معنى له ولا أهمية .

وإن من يقرأ سجلات الحكومة الإفرنسية ومعلومات السياسيين والكتاب الذين شاهدوا الحوادث وكانت لهم يد فيها يبالغ لا شك فى التعنيف والتنديد بما يدعى « دور الهول » إذا أغفل الغاية الرئيسية التى بسببها ومن أجلها تأسس .

ومن كان نظير كارليل سريع التأثر صعب المرامس حاد المزاج يحكم على الحوادث هذه بالنسبة إلى انفعالات نفسه لا بالنسبة إلى الظروف التى نشأت عنها ، ولذلك لا نرى فى كتابه إلا مجموعة قصائد مدح وفخر وهجو ورثاء ، قلت مجموعة قصائد لأن فى أسلوب نثره جمال الشعر وزخرفه فهو يسير منشداً وراء عربة المنتصرين وباكياً فى موكب المنهزمين . يرفع اليوم قوس نصر للقوة المادية ، ويبنى فى الغد مذبحاً للشفقة والحنان . وبين هذه المتناقضات يصبح القارئ حائراً تائهاً . كيف لا وهو يتوقع من المؤرخ أكثر مما يتوقعه من

الشاعر . نريد أن نعرف كيف تخفض آلام البشر وشقاؤهم لا كيف أن نندب هذا الشقاء ونرثيه .

إن فى حياة الأجيال الماضية أمثولة للأجيال الحاضرة والمقبلة والمؤرخ الذى لا يظهر هذه الأمثولة فيلهو عنها فى وصف البؤس والشقاء لا يخفض شقاءنا ولا يعلمنا شيئًا . إن فى أعمالنا اليوم أمثولة ثمينة لأبناء الغد هى الكنز الوحيد الدائم الذى يرثه عنا الخلف بواسطة التاريخ . ومن واجبات المؤرخ المحافظة على هذا الكنز الثمين بعد الوقوف عليه وإذا كان ضائعًا بين أنقاض الثورات والحروب أو مختفيًا فى بحار الأهواء والتعصب فعليه أن يفتش عنه بصبر وعناء وينيره فى الناس مصباح هدى وسلام .

إن الحلقة التى تصل الماضى بالمستقبل هى حلقة الترقى الدائم مما كان إلى ما سيكون، والحوادث التى تتخللها هى حلقات بعضها يشتبك ببعض وليست متفرقة متشتتة كما يزعم كارليل والمؤرخ الذى يكمل سلسلة الترقى أو بالحرى يزيد فى توثيقها يخدم الناس خدمة حقيقية . ولكن كارليل لا يعتقد بحياة جامعة شاملة . حياة روحية دائمة يتصل آخرها بأولها * بل هو شديد الاعتقاد بالتفرد والأفراد وقد قال مراراً إن تاريخ العالم هو تاريخ عظماء الناس . على أن الفرد إنما هو صوت واحد ينطق باسم ملايين من الناس الصامتين ؛ فالرجل العظيم إنما هو عظيم بشعبه لا بنفسه هو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الأشياء والظروف والرجال هو خاضع كأصغر الناس لناموس الترقى الدائم الأزلى بل هو صنيعة هذا الناموس وخادمه المخلص علم ذلك أو جهله، فلو ولد نابليون فى بلاد الصين مثلا وعاش فيها لما كنا نعرفه الآن، ورب قائل لو ولد نابليون هناك هل كانت حصلت فرنسا على المجد الذى أكسبها إياه ؟ أجيب بالإيجاب إذ لو لم يولد نابليون فيها لنشأ غيره وهذا ما يجعلنى شديد التمسك بما يدعى ناموس الترقى الدائم الذى يقضى بوجود رجل عظيم كل فترة من الزمن لتأييد هذا الناموس وتعزيزه .

---

* الكتاب الأول الفصل الثانى والكتاب الثالث الفصل الثانى من تاريخ الثورة .

إن القنوط والشك واليأس والفتور كلها طبائع تظهر فى كل صفحة من هذا التاريخ وفى أسلوب إنشائه الجميل الفخيم، وقد قلت إن كارليل هو أشبه بالشاعر مما هو بالمؤرخ والشاعر لا يكون أستاذاً فى الاقتصاد السياسى ولا فيلسوفاً فى العمران فهو إذا قرأ سجلات الحكومة الإفرنسية ومعلومات من شاهدوا الثورة يثور ثائره الشعرى فيحصل فيه انفجار أشبه بالبركان ويدهمنا بحمم تحرق ولا تنير. فتسود منها آفاق البصيرة وتظهر أشباح أبطال الثورة التى يصفها وهى تتهادى فى الظلمة غير المتناهية. ولكن ماهى غاية هذه الأشباح وماهو غرضها ولماذا أشغلت فكر كارليل فألف فيها مجلدين ضخمين؟ ألأنها كانت تندب وتنوح عبثاً وتقاتل وتحارب باطلاً وتصيح وتنادى دون غاية ودون مرمى ؟ماذا فعلت هذه الأشباح ؟ أكلها الزمان فتلاشت من ذاكرة الإنسان. بلعتها الظلمات فامحت من لوح الحياة. هذا جواب كارليل وزبدة فلسفته المختبأة فى أكمام الفصاحة وأشواك البيان، وبناء على ذلك لا يحق لتأليفه أن يدعى تاريخاً. وإنما هو ملحق تصويرى لتاريخ الثورة الإفرنسية وإن فصوله لأشبه بصور رسمتها يد ماهرة. صور تساعدنا على الدخول إلى تاريخ الثورة الجدى ولكن لا تنبئنا به كثيراً فهى من هذا القبيل أشبه بالصور التى تزين بها الروايات التاريخية، تحملنا إلى بعض ما يقصده الكاتب ولا تكشف لنا الستار عن القصة بكاملها.

ومن جهة فلسفية يمكننا أن نقول إن المؤرخين اثنان: الأول يعتقد بالنشوء والارتقاء الاجتماعى بالترقى الدائم بالصعود المستمر. والثانى لا يعتقد بشىء من هذا. فلسفة ذاك فى العمران شبيهة بخط مستقيم عمودى، وفلسفة هذا بالدائرة، صعود البشر فى رأى الأول دائم مستمر وفى رأى الثانى محدود تصل الشعوب فيه إلى نقطة لا يستطيعون أن يتجاوزوها فيهبطون عائدين إلى الهوة التى خرجوا منها. وهم فى هذا يشبهون الحيـــة التى تأكل ذنبها. ومثل هذا المؤرخ الذى لا يكترث بالأشياء ولا يحترم روح التاريخ ولا ينظر إلى ما وراء الحوادث يجرد على الفساد والظلم سلاح التهكم والازدراء ولا يفوز بغير الهدم والتدمير. ومثال ذلك أن كارليل يشغل فكرته وقريحته غالباً بتطفيف الحوادث وتافهها

شأن القصصى أو الكاتب الأخلاقى(*) فضلا عن أنه لا يعتقد فى تاريخه هذا بغير الزوال الدائم .

كل بيت للهدم ما تبتنى الور قاء والسيد الرفيع العماد
واللبيب اللبيب من ليس يغتر بكون مصيره للفساد(١)

والمؤرخ الدهرى يختلف عن الفيلسوف الدهرى فى أن هذا يعتقد على الأقل بأزلية المادة وخلودها ، وذاك لا يعتقد بخلود شىء . إنما حياة الأشياء والمخلوقات إلى أجل مسمى . بل هى خيال زائل يظن ذاته حقيقة ثابتة دائمة . فى مثل هذه الأقاويل يبرهن كارليل على أن الثورة الإفرنسية لا تؤثر أبداً فى تاريخ الشعوب والعمران ولن تؤثر حتى فى أحوال أوربا السياسية والاجتماعية .

وفى الفصل الثانى من الكتاب الأول يرفع الستار حتى النهاية عن فلسفته الاجتماعية الدهرية ومن يقرأه مفكراً تنجلى له النتائج التى استخلصناها منه ، وهى أن تعظيم الصغائر يلذ متى كان النافخ فى فقاقيعها كاتب عظيم ككارليل ، ولكن الحفول فى الصغائر يبعدنا عن الجوهر الحقيقى . وأن الفكر الروحى الداخلى زائل لا أزلى هو ولا خالد ، بل هو يتغير ويتحول ويتلاشى كالمادة صحيحاً كان أو فاسداً . وأن النهضات الاجتماعية السياسية تظهر فجأة واتفاقاً لا بعد أن تنضج فى خفايا الزمان . وأن الفلاسفة مخطئون على الإطلاق فى مبادئهم الاقتصادية وفلسفتهم الاجتماعية . وفى بقية الفصول دليل واضح على كل هذا . وفيما كتبه عن ميرابو بالأخص وعن ليلة رابع آب (أغسطس) دليل أنصع وأوضح ، ومعلوم أن مجلس النواب ألغى فى تلك الليلة الشهيرة فى مدة ساعتين من الزمن نصف شرائع الحكومة القديمة وقوانينها . وإذا أراد القارئ أن يطلع على مثال جلى من تهكمه الفظ وانتقاده العنيف الشديد فليقرأ الفصول التى يصف فيها فرار الملك والمحالفة الوطنية فى شأن دى مار ، والمشاغب التى نجمت عن قلة الحنطة واحتكارها . وكم مرة ردد فى كتابه عن مجلس الأمة الذى نشل

(*) الكتاب الأول الفصل الثانى من تاريخ الثوره .
(١) البيتان لأبى العلاء المعرى .

فرنسا من الهوة التى كادت تبتلعها قوله إن « قد اجتمع أعضاء المجلس ليصلحوا قواعد الأفعال الشاذة » .

قد لا يحترم كارليل إلا القوة المادية وكثيراً يكبر نزوات الإنسان وأهواءه ويمجدها . فهو لا يرى فى نهضة الإفرنسيس على أرباب الظلم والظلام سوى خمسة وعشرين مليون معدة فارغة وخمسة وعشرين مليوناً من الألسنة الملتهبة حماساً الملتوية جنوناً فى عالم من الفساد مضطرب مدلهم . فالخبز فى مذهب كارليل هو سبب الثورة ونتيجتها هو الأول وهو الآخر . وأما المؤرخ الذى يعتقد بالصعود المتواصل بالترقى الدائم فهو لا شك يرى أن ليس بالخبز فقط يحيا الإنسان .

إن بين الكمالات النظرية والاختلال الحقيقى فى حياتنا الاجتماعية علاقة خفية تكاد لا تنظر بالعين المجردة ولا تتجلى دقائق الحكمة فيها إلا لمن خصتهم الطبيعة بشىء من البصيرة والذكاء وبنفس صافية شفافة صحيحة تنعكس فيها الأشياء انعكاساً تاماً جلياً صحيحاً . ولا شك أن بين ما هو كائن فى تصوراتنا وما هو حادث فى حياتنا فرقاً ظاهراً ومع ذلك فإن هذا إلا انعكاس ضعيف مختل لذلك . كأن العقل البشرى اليوم أشبه بمرآة مكسرة لا تنعكس فيها الأشياء كما ينبغى . وإلا يجوز لنا مع ذلك أن ننفخ فى الحوادث روح الكمالات النفسية فنبقى مدفونة فيها إلى أن ينشرها الزمان فتظهر ولو بعد ألوف من السنين بمظهر من الحياة سام نقى جميل « ألا نستطيع أن نمزج القليل مما هو كائن فى تصوراتنا بما هو كائن حادث فى حياتنا . ألا نستطيع بكلمة أوضح أن نزرع فيما نقص وفسد من الأعمال بذور ما تعالى من الآمال . لتنبت وتنور ولو فى جيل بعيد بل آتٍ من الأجيال .

هذه سؤالات يضحك منها كارليل الساخر بآمال الناس المستخف بتشوقات الروح الكمالية . فهو لا يمنحنا شيئاً ولا يدعونا إلى شىء ولا يؤملنا بشىء . القوة الحيوية المادية التى تظهر فى عظام الرجال وأبطال التاريخ إنما هذه فى مذهبه كل شىء .

أنا آكلك وآخر يأكلنى . برافو ! والأخير من البشر فريسة من يكون ؟

ولا نظن أن المؤلف حاول أن يضع تعليماً جديداً فى الثورة الإفرنسية فالمؤرخون كماسبق القول ينصرون الثورة أو يقاومونها ، أما كارليل فشاء أن ينصرها ويقاومها معاً . ولكن هى التخمة وعرض بل مرض آخر ولّدا فيه السويداء فأصيب بالفتور والشك وأصبح لا معها ولا عليها . ولا نظنه ولو شاء يستطيع أن يؤسس حزباً ثالثاً غير متحيز لأنه فى كل ما كتبه عن الثورة لم يبد قط رأياً وضعياً ثابتاً يتخذه الحزب دستوراً لأعماله بل كان كريشة فى مهب الريح طوع تأثراته وأسير وساوسه .

هل الملكية لازمة نافعة للناس . كلا . إنها مبنية على أساس فاسد . هل الجمهورية أصلح منها . كلا . فهى قد نشأت من الظلمة وشيدت على جثث الملايين من العباد . علينا إذاً بالفوضى هذه هى نتيجة فلسفة غير المتحيزين من المؤرخين .

وقد علمنا التاريخ حقيقة نود لو لم تكن وهى أن من أراد تأسيس حزب أو وضع تعليم أو إنشاء ديانة ينبغى له أن ينظر إلى وجه واحد من المسألة فقط . إذا شاء أن يكون صريحاً فى رأيه حازماً فى قوله ثابتاً فى عقيدته ، وبكلمة أخرى إذا شاء أن يكون مؤسساً لحزب أو تعليم أو دين ما عليه أن يكون متحزباً متعصباً مأخوذاً بدعوته مهما كانت . عليه أن يكون أعمى أصم فى ما سوى ذلك . فالنفى والشك والتردد وعدم الاكتراث والفتور هذه لا تؤسس ممالك وأحزاباً وديانات . وهذه كلها من مزايا كارليل المشهورة . فقد أحب ألا يكون متعصباً لا مع الثورة ولا لها فجاءنا بتعصب جديد خصوصى لا يضر بالحقيقة الجوهرية ولا ينفعها وقد تلذ لمن تتوق نفسه إلى الجديد من الأشياء والآراء . وربما أنه توسع فى الصغائر والتوافه التى تتعلق فى الثورة ولذ له سردها بل نظمها فى نثره الفخيم فهو أشبه بنور تضعضعت أشعته المرسلة فى كل الجهات ولم تتعدّها إلى ما وراءها من الجوهريات . وأنه لو صوب نور مصباحه إلى غرض واحد فى جهة واحدة لأرانا فى الزوايا شيئاً من الحقيقة الثابتة الدائمة . لو فعل ذلك لفاز

بوضع تعليم جديد أو تأسيس حزب ثالث ينظر فى شئون الثورة نظر الغريب عن هذه الأرض ويقيس منافعها وأضرارها بغير مقاييس هذا العالم .

أما التنديد برجال الثورة والاستياء من النهضة بجملتها والنفور من هولها والفرار من نارها المحرقة المنيرة ، فهذه ذنوب لا تغتفر للمؤرخ إذا اقترفها . فالطفل يولد فى الألم والعذاب والجمهوريات تنشأ فى الثورات والحروب . الأم تتألم ساعة الولادة وكذلك الأمة . يموت الإنسان والعذاب ملازمه ويولد الطفل والألم حليفه . وكذلك الحكومات بأنواعها والأمم . فلا تموت حكومة بسلام ولا تنشأ حكومة بسلام .

ولا بأس فى الختام من قصة صغيرة أوردها ، فقد ذكرتنى بها مطالعة هذا الكتاب الذى أود أن يطالعه كل من يحسن اللغة الإنكليزية من قرائى . ورب قائل : ولم تدعونا إلى مطالعته بعد أن تحققت فساده وبان ذلك الضرر الذى ينجم عن اقتباس الأفكار التى جاءت فيه ؟ أريد أن يقرأه كل من كلف نفسه قراءة هذا البحث ليستطيع أن يقابل بين الاثنين . لا أريد أن يرتئى أحد رأيى دون أن يشغل قليلاً فكره . لنعد الآن إلى القصة .

أراد أحد الملوك الأقدمين المولعين بالعلم أن يطلع على تاريخ الأمم فطلب أحد وزرائه وأمره بتأليف أو جمع تاريخ عام فذهب الوزير وغاب سنين ، ثم عاد إلى الملك ومعه عدد من الجمال محملة كتبًا . فوقف أمام ملكه وقال : « ها هو التاريخ الذى تطلبه » ، ولكن الملك وقد هالته أحمال الجمال أمر الوزير أن يختصر التاريخ فغاب هذا ثانية وعاد بعد سنين ومعه جمل واحد فقط يحمل التاريخ المختصر . أما الملك فكان قد ضعف بصره ووهنت قواه فأمر الوزير أن يختصر أيضًا فغاب الوزير للمرة الثالثة وعاد فرأى مليكه يتقلب على فراش الموت فلما رآه الملك قال : « آه ثم أواه سأموت قبل أن أطلع على تأريخ الأمم » فأجابه الوزير معزيًا : « لا تقل ذلك يا مولاى فقد أحضرت لك مجموعة صغيرة تنبئك عن كل أعمالهم باختصار غريب وها هى : « ثم

أخرج الوزير من جيبه ورقة صغيرة وقرأ بصوت مرتفع : « هاك يا ملك الزمان تاريخ شعوب الأرض مختصراً : فإنهم تنفسوا فتنافسوا فعرقوا فماتوا » .

وتاريخ كارليل المقسوم إلى عشرين كتاباً وكل كتاب مقسوم إلى فصول لم يفدنا عن الثورة الإفرنسية أكثر مما أفاد الوزير مليكه عن تاريخ شعوب الأرض ، فالكلمات الأربع التى تؤلف تاريخ الوزير تكفى لتأليف مثل هذا التاريخ دون أن يفوتنا منه شيء كثير . ولو شاء كارليل أن يختصر لقال مع الوزير عن الإفرنسيس « قد تنفسوا فتنافسوا فعرقوا فماتوا » ، ولكن فى الأمة الإفرنسية ما لا يموت — فى الأمة الإفرنسية من نتائج الثورة العظيمة ما تبقى آثاره بادية حية نامية فى ترقى الأمم والناس .

ومن شعره :

النجوى

هى صلاته التى كان يناجى بها ربه بخشوع ويجهر فى بعضها الآخر بصوت أجش مجلجل كأنما يحاكى فيه صوت العزة الإلهية .

والنجوى مثال من شعره المنثور وقد ظهرت فى أول الجزء الرابع من الريحانيات طبع بيروت ١٩٢٤.

ياذا الجلال الأزلى ، ألحفنى بشيء من جلالك .

ياذا النور الدائم ، امددنى بقبس من نورك .

ياذا القوة غير المتناهية ، ابعث منها فى قواى .

* * *

إنما أنا مبدأ الحياة الأزلية ، وعين الحب والقوة ، وإنى حى فيك ، عليم بتجاوبك .

* * *

أنت الحياة بأجمعها ، أولاً وآخراً ، وإنى لأحيا بك .

إنما أنا مصدر الإدراك البشرى ،

وسأزيدك إدراكاً بأنك جزءٌ منى .

* * *

ساعدنى اللهمّ لأجمع قواى الروحية ، والعقلية ،

والجسدية ، فى سبيل الحق والحب والحكمة .

إنى أيها الإنسان مصيخ إليك ، مطلق يديك ، منعم عليك .

* * *

يا أيها الينبوع السرمدى ،

المنبعثة منه أنوار الحب ، المتدفقة منه مياه الحياة والعافية ،

إنى أفتح لك عقلى وقلبى ، وأبسط أمامك روحى ، فلا تحرمنى فيض مكارمك ، ولا تبعدنى عن ينابيعك .

إن ينابيعى لفى النجوم ، وفيما يربط النجوم بعضها ببعض . وفيما ينشأ عن ذا الارتباط من قوة وعافية . إن ينابيعى لفى الحقول ، وفيما ينشأ فيها من الأزهار . وفيما يبعث من الأزهار أريج الحب والجمال .

وهى كلها أمام عينيك ، وطوع يديك يد العقل الكشاف ، ويد الروح الخالدة .

* * *

إنك إلهى ، ولا إله لى إلاّك .

إنى نبض الحياة فيك ، وروح الحب فيك ، ونور الحكمة فيك كن عليها أميناً ، فهى الألوهية ديناً ويقيناً .

ومن فكره

مختارة

من « التطرف والإصلاح » ، طبع سنة ١٩٢٨

« التطرف والإصلاح » عنوان لبحث اجتماعى يدور حول العدل والمساواة بين الناس . وفى المختارة التالية يطالع القارئ نظرية من نظريات الكاتب فى الموضوع .

إن الجهل والخوف توءمان أمهما العبودية وأبوهما الظلم . وإن عقلية الأسرة كلها لعقلية العبيد . وما أدراك ماعقلية العبيد . إنها لتبدو فى السيد وفى المسود — فى الوزير وفى الحقير — فى المؤمن اللابس العمامة أو البرنيطة ، وفى رئيسه الرافل بالدمقس أو بالأرجوان : — أنا سيدك ، وهذا نيرى على رقبتك . ثم يقول لمن هو أرفع منه : — أنت سيدى ، وهذا نيرك على رقبتى . سبحان من جعل النير رمز المساواة .

ومرحبًا بمن جاء يكسّر الأنيار ، ويحرر العبيد !

* * *

إن العلم والحكمة والحرية هم الرعاة الحقيقيون . هم الذين يعرفون الموارد العذبة ، والمناجع الخصبة الطيبة ، فيدعون ولا يُكرِهون . أجل ، إنهم ليدعون بالحسنى ولا يكرهون أحداً .

ولكن الناس عبيد ما ألفوا يسيرون تابعين ، مسوقين فيقتفون الآثار البادية للعين أو لحاسة الشم ، وإن أفضت بهم إلى القفار المهلكة أو إلى البوادى التى يكثر فيها السراب فإن لم يقم فيهم من يحمل العصا ويصيح صيحة المنقذ ، فهم لا يسمعون ولا يزدجرون .

* * *

هم الناس — يقدسون الجهل ، ويبنون معابد للخوف ، ويشعلون أمام الظلم الشموع ، ويقدمون للضلال القرابين ، ويجلسون بعد ذلك كالقضاة يدين بعضهم بعضًا، ثم يمشون فى الأسواق على الاثنين، وقد حجبوا الأذناب بالجوخ والحرير .

* * *

لو كانت هذه الإنسانية مرنة فى معقولها ومفهومها لأثرت فيها الحكمة والاعتدال تأثيراً حسنًا سريعًا . أما وهى متزاحمة متراصة ، بطيئة الحركة ، كثيفة الذهن والإحساس ، مثقلة بتقاليد وخرافات أقدم من أور الكلدانيين ، فلا بد من استخدام الألغام والمدافع فى استنهاضها واستحثاثها ، لا بد من الحماسة تهزها ، ومن الأهواء الإصلاحية تهيج أعصابها ، ومن خمر الحرية يشعل فى عروقها نار الهوس والمغامرة .

لا بد من التطرف يغضبها ، فيستفزها ، فتنشط فى الأقل إلى محاربة المصلحين وتستفيد من مجرد الحركة والمقاومة .

وإنك لتشاهد التطرف حتى فى الكائنات ، وفى نواميس الطبيعة فما معنى الزلازل إذن ، والبراكين ، والسيول ، والطوفان ، والأمراض السارية ؟ وإن فى تاريخ الإنسان أخوات لها نسميها الثورات والحروب .

إن الثورة مطهر الأمة وقد ثارت على ما فيها من الظلم والفساد ، إن الثورة مطهر الإنسان وقد ثار على ما فى نفسه من قديم التقاليد والخرافات . ومن لا يثور على ما فى نفسه ، لا ينجو من العبودية ، ولا حق له أن يشكو العبودية .

ومن مقالاته فى التاريخ

مختارات

من كتاب « النكبات »

(النكبات) ١٩٢٨ وهو خلاصة تاريخ سورية من العهد الأول بعد الطوفان إلى العهد الحالى ويقع فى ١١٢ صفحة من قياس « ملوك العرب » .
وقد أراد المؤلف أن يصرف به أنظار أهل هذه البلاد عن التغنى الفارغ بالماضى . وأن يوجههم إلى الاهتمام الجدى بمشاكل الحاضر والتطلع الداعى إلى آمال المستقبل .

إخوانى أبناء هذه البلاد ، سهلها وجبلها وساحلها :
كثيراً ما نقرأ ونسمع أن تاريخنا مجيد ،
وكثيراً ما نتغنى بمجد الأجداد ، وبمفاخر الأجداد .
فتعالوا نعيد النظر فى أهمّ ما فى التاريخ ،
تعالوا نزور الماضى أهانا عن كل مكرمة .
تعالوا نزور الماضى فنقصر إذ ذاك من ذكر الأجداد .

* * *

ومن هم الأجداد ، أجدادى وأجدادكم ؟
القوى منهم كان ظالماً ، والضعيف كان مستعبَداً .
اقرأوا التاريخ منزهين عن الأغراض مجردين من الأهواء .
اقرأوا التاريخ لتدركوا اللّب فيه ، فتنسوا إذ ذاك قريضه وقوافيه .
اقرأوا التاريخ متفهمين روحه وروح أبطاله ، فتودون إذ ذاك أن تنسوا الماضى .

* * *

انسوا الماضى ، انسوه غير آسفين .

(مراقبة)

ظُفر الميت خيال لا يفيد ، وما حك جلدَك مثلُ ظفرك .

إذن ، تعالوا نتفاهم ، فنتآلف ، فنتضامن ، فنتحد فى سبيل الوطن بل فى سبيل الحياة .

تعالوا نكتب صفحة جديدة فى تاريخ هذه البلاد .

الشاب المجهول

فى هذه النبذة من « تاريخ نجد الحديث وملحقاته » يصف الكاتب دوراً من حياة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود . وذلك حين كان ابن سعود مجهولا فى الكويت قبل أن يسترد ملكه من آ ل الرشيد .

ولد فى الرياض عاصمة ملك أجداده ، فرأى عمومته يتنازعون الملك ويتحاربون ، ورأى العدو على أبواب العاصمة وهو يطمع بالاستيلاء على نجد أجمع ، ورأى أباه يحارب فى الوقعة الأخيرة ويستسلم إلى الله ، ثم سمعه وهو جالس إلى جنبه فى الحساء يرفض شروط الدولة العلية ، فسُدّت أمامه الأبواب كلها إلا الباب إلى الصحراء ، فلجأ إلى خيام الشعر وهو مثل أصحابها لا يملك فترا من الأرض ، وليس له غير تلك الثقة الوطيدة العالية ، الثقة بالله ، التى هى كنز الأعرابى الأكبر .

ثم سكن الأب الكويت ، وصار الصبى شابًّا ، فكانت الذكرى الأليمة رفيقة أفكاره وسميرة أحلامه . قرأ شيئًا من العلوم هناك ، وهو يفكر فى الملك المفقود . جلس أمام البحر وهو لا يدرى إذا ركبه إلى أين تحمله الأقدار ، ثم نظر إلى البادية وهو يهجس بالملك المفقود ، عاشر الأمراء والعلماء ، وجلس ساكتًا متأدبًا فى مجلس الشيوخ ، وهو يحلم بالملك المفقود ؛ فتح الكتاب

ثم ألقاه جانبًا ، وهو يرمق السيف بنظرة كلها شوق وأمل .

عاش مجهولا فى الكويت ، مجهولاً إلا فى الاسم والنسب ، وفيما يبدو للعين المجردة . فقد كان الناس يعرفون أن ذاك الشاب القوى البنية ، الطويل القامة ، البراق العين ، هو عبدالعزيز بن عبد الرحمن بن سعود ، وما كان كبار القوم فكراً وفراسة ليعرفون أكثر من ذلك . بل كانوا كلهم فى ظلال سور الغيب كالأطفال . جهلوا ما كان يجهله حتى أقرب الناس إلى عبد العزيز ، حتى أبوه وأمه . جهلوا ما كان يجهله التاريخ . جهلوا ما كان يجهله الشاب المجهول نفسه ؛ جهلوا ما لم يكن يعلم به غير الله .

مغزى اللبنة

الفصل الأول من القسم الثانى من « قلب العراق » الذى طبع سنة ١٩٣٥ وقامت حوله قيامة الأثريين فى العراق لما جاء فيه من الانتقادات حول المحافظة على الآثار . وفى « مغزى اللبنة » وصف لمعامل الطوب وكيف ينجز صنع الحجارة فيها .

لا يزال ببغداد من الآثار القديمة ما يعود بعضها إلى القرن الرابع للهجرة . سنعود بك ألف سنة إذن ، لنريك ما نجا من صول العناصر ، وغوائل الزمان . وإنك لتعجب للرسم الطامس ، والطلل الدارس ، فضلاً عن الصرح الذى لا يزال قائمًا سليمًا نافعًا ، إذا ما علمت أن مواد البناء فى أواسط العراق سريعة التفكك والدثور . فالبانى بالطين والأجُرّ مهما كانت مهارته ، ومهما كان من طموحه وإجادته فى الهندسة والزخرف ، لا يتمكن من تشييد الصروح التى يضمن لها طول البقاء الصلدُ الضخم من الحجارة ، أما اللبن فهو مثل العامل باللبن — هو من التراب ولا يلبث أن يعود ، مثل الإنسان ، إلى التراب . لا خلود فى غير الجلمود .

واذكر كذلك أن لبنة بابل التى لا تزال تشهد على مهارة صانعها وبانيها

فى عهد نبو خذ نصر ، والتى لا تزال فى حائط المعبد وشارع النصر ، فيما اكتشف من المدينة الكلدانية القديمة ، كما كانت يوم أخرجت من النار منذ ألفى سنة ويزيد، إن تلك اللبنة أمست من التقاليد المطوية، والذكريات المنسية ، فى مصانع الأجرّ بالكاظمية وببغداد . فقد تطورت صناعة الأجُرّ فى العراق تطوراً سلبيًّا . لا أعنى بهذا أنها رجعت القهقرى ، بل أعنى أنها سقطت سقوطًا مفجعًا . والبرهان على ذلك فيما نشاهد من أنواع الأجر القديم والحديث ، أو بالحرى فى المقارنة بين لبنة بابل ولبنة طاق كسرى وبين لبنة بغداد اليوم .

ومما يدعو للتفكر والاعتبار أن هذا التطور المعكوس دخل على شعب البلاد ، فى بعض نواحى الحياة ، كما دخل على أجرّه. فلاعجب إذا قال العالِم الأثرى : هات اللبنة العراقية وخذ الحديث عن أهل الزمان الذى صُنعت فيه .

وهاك بعض الحديث . كان البابليون مثلاً يهتمون اهتمامًا عظيمًا بالزراعة والرى ، وكانت اللبنة البابلية فى منتهى الجودة والمتانة ، ثم عرا الزراعة شىء من الإهمال فى عهد الساسانيين ، وغدت اللبنة الفارسية دون البابلية صنعًا وإتقانًا . ثم جاء العرب ، فدخلت الزراعة — وصناعة الأجر — فى دور الانحطاط .

لا نكران أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يعتنون بالزراعة عناية تذكر ، ويستحبون من البناء ما كان فسيحًا ، وما اتسعت فى طول بقائه فسحة الأمل . ولكن اللبنة التى كانت تُصنع فى زمانهم هى دون اللبنة الكُسْرَوية فضلاً عن البابلية .

مسكينة هذه اللبنة العراقية العصرية — هذه اللبنة النضاحة المتملحة . فما كان بإمكان حتى الخلفاء العباسيين ، أولئك الخلفاء الذين بذّروا أموال الدولة فى بناء الجوامع والقصور ، كما بعثروها فى الحروب ، ما كان بإمكانهم أن يجبروا صانع الأجر على أن يستخرج من اللبنة كل ما فيها من الملح . أو أنهم جهلوا هذا الأمر ، وما علموا أن ملح الأرض ، فى صناعة الأجر على

الأقل ، هو غير ما تصفه به الأمثال . هو يُفسِد ، ولا يصلح . وهذا هو السبب الأول فى درس آثار بغداد المشهورة وإمحائها ، إلا القليل منها .

كان البابليون يحسنون ، ولا شك ، استخراج كل الملح من الأتربة التى يستعملونها لصنع الأجرّ . وهذا هو السر فى دوامها سليمة أكثر من ألفى سنة . فالملح فى اللبنة يجعلها عرضة لفعل العناصر ، أى نضاحة . وإنك لتراها فى أبنية بغداد اليوم تنش بالماء، فيذوب تدريجًا ما فيها من الملح، فتبدو بنخاريبها كقطعة من الإسفنج المتحجر . وتستمر هذه الحال حتى تتفتت اللبنة ، فيتداعى الجدار ، ويسقط البناء .

ولماذا لا تصنع اليوم اللبنة الشبيهة بلبنة بابل القديمة ؟ سألت هذا السؤال أحد أصحاب المصانع خارج الكاظمية ، فقال : « هذا التراب من كرم الله ، واللبنة منه ، وهى خير ما يصنع ، والحمد لله » ، قلت : « وكم هى مدة الاشتواء ؟ » ، فقال : « قدر ما يشاء الله . حينًا سبعة أيام ، وحينًا عشرة ، وحينًا خمسة عشر يومًا ، وفى بعض الأحيان لا يشتوى قطعًا . سبحان الله ! » .

كانت النساء العاملات فى محفر كبير فى جوار الأتون يمزجن ركام التراب بالماء؛ فقال لى وأنا أنظر إليهن وأرقب عملهن : « التراب والماء لا غير » . ثم انتبه فأدار بوجهه إلى الأتون وكمل كلامه قائلاً : « والنار — التراب والماء والنار . وكلها من كرم الله ، سبحانه وتعالى » .

قلما اجتمعت ، فى رحلاتى كلها ، بمن هو أكثر لطفًا ، وأدمث خلقًا وأجمل تقوى وورعًا من هذا الرجل . وهو ولا شك شيعى من الكاظمية ، قلما تجد مثله فى الشرق . هو رجل قديم الأيام ، قديم اللسان ، قديم العقيدة والإيمان . هو رجل من القرن العاشر ، أحد صناع الأجرّ فى زمن العباسيين ، عاش ألف سنة فلطفته الأيام ، وورعته الليالى. ثم استأنف صناعته فى ظل المآذن والقباب ، فى جوار الكاظمين رضى الله عنهما .

وقد زرت خارج بغداد مصنعًا للأجر حديث البناء والأدوات ، صاحبه

إسرائيلى من هذا الزمان — عصرى عمرانى ! فهو يشعل فى أتونه زيت النفط ، بالضغط البخارى ، ويصنع الأجرّ بالمكنات ، ويرسل نموذجات من التراب — مكّن كلمته هذه بإيماءة فيها الرضى عن نفسه والفخر بها — إلى أوربة ليفحص فحصًا كيماويًا . ثم قال : « نعم ، إننا نلجأ إلى العلم ، لننتفع به . ولكن العلم لا يزيد الأرباح فى العراق » . ثم سألته سؤالى بخصوص اللبنة البابلية ، لبنة نبوخذنصر ، وهى المثل الأعلى فى هذه الصناعة ، فقال : « كله يتوقف على التراب والملح . فى بعض الأماكن يكثر الملح فى التراب ويقل فى غيرها . لذلك نرسل النموذجات منه إلى الاختصاصيين بأوربة . . . أظن أن الملح يقل فى التراب فى جوار بابل والحلة . . . لا يا سيدى لا نستطيع أن نستخرج كل ما فى التراب من الملح ، لأن ذلك يقتضى نفقات كبيرة . والناس لا يرغبون بغير الأجرّ الرخيص السعر » .

إن المسألة اقتصادية زراعية . فاللبنة لا تتحسن إلا إذا زيد بثمنها ، والزيادة بالثمن غير ممكنة إلا إذا ازدادت الثروة فى البلاد . لذلك ترى الحكومة العراقية باذلة جهدها فى تحسين الزراعة بتحسين عوامل الرى . إذ ذاك نعود إلى الزمن البابلى — إلى عهد نبوخذ نصر الزراعى — فنستغل الأرض بكل ما لدينا وبكل ما فيها ، ونثرى ونبنى البيوت التى لا تنضح لبناتها ولا تذوب ، البيوت التى تدوم أكثر مما دامت قصور الخلفاء العباسيين .

لله أولئك العباسيون ! فقد ابتغوا المجد فى الدنيا وفى الآخرة ، وخصوصًا فى الدنيا ، وما أدركوا أن ما ابتغوه موكول باللبنة لا بالدينار ، وبأقنية الرى لا بأقنية الحياة الحريمية ، وبالمحراث لا بالسيف . بل هو موكول ببناء العقول أكثر منه ببناء الدور لاسترقاق العقول وسجنها ، أو لاستخدامها فى سبيل الخليفة ولذاذاته .

ومن رحلاته :

أرز لبنان

هذا المقال مقتطع من « قلب لبنان » و « قلب لبنان » هو كتاب رحلات ووصف لمناظر هذا البلد ولتقاليد أهله . وقد حال الموت بين الكاتب وبين « قلب لبنان » فلم يستطع أن ينجز منه سوى ثلاثة أرباعه .

رفعت حجراً من حجارة الطريق إلى فمى ، فقبلته ورعًا حامداً آملا ، قبل أن دخلت الظلال القدسية .

واستغفرت الأرز لامتهانى حرمة عزلته — هذه العزلة الفريدة فى أعالى الجبال فوق وكر النسور ، وراء حُجُب الآفاق .

استغفرت الأرز لأنى جئت أشق ستار كعبته ، جئت أستكشف مكنون سره .

• • •

إيه ربة الأشجار ، وسيدة الجبل الجبار ، أنت الرافعة أعلامك الخضراء ، بين هذه الصخور الدكناء ، بنت الجديدين ، وأخت القمرين ، حدثينى .

حدثينى ، وعلمينى ، وارفعى بى إلى علياء إيمانك .

فقد جئتك مستعلمًا ، مسترفعًا ، مستمدًّا من ينبوعك العالى القوة والحكمة .

• • •

حدثينى عن رياح الشمال .

— هى تجيئنى مولولة نائحة ، فأوقفها لتستريح ، فتستحيل أنفاسًا عطرية .

حدثينى عن الغيث إذا همى .

— هو يرقص على الصخور أمامى ، فتقهقه هازئة ، ويضرب على أوتار

قيثارتى ، فتُسمعه أغانىَ البلابل والأمواج .

حدثينى عن العواصف .

— هى تصعد هائجة من الأودية ، وتهبط مجلجلة من الآفاق ، فتدق حولى طبولها ، فأفتح لها قلبى ، فتدخل ثائرة . ثم تتحول أصواتها ، بين ذراعى ، إلى أصوات البوق ، والمزمار والناى ، ثم تسكن وتنام ، تحت أجنحة السلام .

حدثينى عن الثلوج .

— هى حصنى فى الشتاء ، ودرعى فى الربيع ، فتفت من ساعد العاصفة ، وتلطف حرارة الحب الآخذ بالازدهار . وهى فى الصيف أم جذورى ، ترضعهن تحت التراب وبين أصول الصخور ، فيبتهج قلبى ، ويرتفع رأسى ثناءً وحمداً .

حدثينى عن السيول .

— هى تعبث فى بيتى وتعيث ، فتعرى منى الجذور ، فأنثر فوقها ريشى فى الصيف والخريف . وقد تعاونى الأيام ، فتحمل إلى التراب على جناح الرياح ، فألبس جذورى ثوبًا جديداً .

حدثينى عن الصخور .

— هى المحدثة قبلى وبعدى . منها ترابى ، وإليها مصيرى . وهى فى حياتى قرة عينى ، وزينة نفسى . بل هى هيكلى الخالد ، العامر اليوم بى ، السائل غداً عنى .

حدثينى عن السحب .

— هى حجابى وجلبابى ، وهى بخور محرابى .

والفصول .

— الشتاء سميرى ، والربيع سفيرى ، والصيف قيّمى الندى ، والخريف كاهن معبدى .

حدثينى عن الجديدين .

— النهار جليسى ، والليل ضجيعى ، وللاثنين يد فى قِدَمى وأجلى .

وعن القمرين .

— الشمس مديرة أسبابى ، والقمر حاجبٌ فى بابى . الشمس تطعم اخضرارى ، والقمر يحفظ أسرارى .

والنجوم .

— هى أيدى الله الورديةُ الفضيةُ الذهبيةُ البنفسجية . هى هى أيدى الله ، تعطى ولا تسأل ، تنثر ولا تستعيد .

هى أيدى الله تحمل إلى كل ما فيه جمالٌ وابتهاجٌ وسكينةٌ وهدى .

أيدى الله — النجوم — ربات الشعر والفنون ، ربواتُ الخيال الصَّفِيِّ والغبطة الشجية .

النجوم هن الحسان اللواتى ينشدن فى ظلال منسكى ، وهن العذارى اللواتى يرقصن فى معبدى .

النجوم هن الوفيات الصفيات ، البعيدات القريبات ، اللواتى يزلن وجومى ، ويلأمن كلومى ، ويعلمنى الابتسام ، ونسج الأحلام .

* * *

أرزَ جبالى ، أرزَ أجدادى ، إن لياليك ليالى ، وإن نجومك نجومى .

جبل طارق

هذا فصل من كتاب « المغرب الأقصى الأسبانى »(١) . وقد ألفه الكاتب بعد أن قام برحلة إلى المنطقة الإسبانية فى مراكش سنة ١٩٣٩ دامت ما يزيد على الشهرين . وفى هذا المقال وصف بليغ لمعقل جبل طارق العظيم . هذا الحصن الذى شاهد ولايزال يشاهد أعظم صراع عرفته الأمم المتحاربة .

من طنف غرفتى فى نندق الصخرة ، اللاحق ظهره بصدر الجبل ، تحت هوله الخالد ، أطللت على مشهد رائع من مشاهد الجمال الطبيعى ، والعظمة

(١) نشرته دار المعارف فى مصر .

الدولية . فمن الصنوبر الساحق النازعة أغصانه القديمة إلى الفوضى ، إلى الأزاهير تحته فى جنائن تتغنى بالوفر والنظام ، إلى ساحات معبدة فسيحة ، للعب الـ « تنيس » ، إلى طريق أسحم أملس بين البلدة وطرف الصخرة الشرقى ، مظلل بالأشجار مزدانة جوانبه بالأزاهير المتدلية عرائشها من الجدران العالية — كل ذلك فى انحدار غير انحدار الجبل إلى الفندق ، فى انحدار خفيف لطيف إلى البحر .

وهناك على شاطىء البحر — الطبيعى الاصطناعى — فى الأرض التى هى من الجبل والأرض الردم — مظهر من مظاهر العمران المدفعى ، والعظمة الصناعية البحرية ، المجردة كلها من جمال الطبيعة أو الفن . هناك رمز العلم والقوة . هناك الأرصفة الممتدة إلى البحر ، المكعبة والمثلثة فيه ، كأنها قفايا هندسية . وهناك أبراج وجسور وعمد من حديد للبرق والدفء والنور ، ولرفع الأثقال ونقلها . وهناك المخازن والمستودعات ، والمرافئ والأحواض ، والمكاتب والمختبرات . وهناك المصانع لترميم السفن ، وللتنظيف والتجديد . وهناك المدرعات والغواصات والطرادات ، وقد عادت من نزهة فى البحر المتوسط ، وهى متأهبة لدرء أخطار الحرب ، أو لخوض عبابها .

هى بلدة قائمة بنفسها . وهى دوماً فى اشتغال : نار محركاتها لا تخمد ، وأنوارها تصل الشفق بالفجر . هى صخرة الدولة البريطانية . هى هى جبل طارق عظمتها البحرية .

أما البلدة الأخرى ، جبل طارق السوقة ، فهى فى الناحية الغربية ، بين الباب الشرقى والمرفأ التجارى . وهى فى سوقها الكبير الأوحد ، وجاداتها القصيرة الضيقة المتفرعة منه ، لاحقة ها هنا بسفح الجبل ، آوية هناك تحت صخوره ، ومستلقية على الساحل وعلى الأرض الردم الذى أضافها الإنكليز إليه .

فى هذه البقعة المنقبضة المنبسطة معاً يقيم سبعة عشر ألفاً من الناس ، من السوقة ، وفيهم التجار والصيارفة وأصحاب المقاهى والملاهى والحانات من الأمم الغربية والشرقية ، وهم يتراطنون بالإسبانية والإنكليزية ، ولا يحسنون إحداهما . لا يحسنون غير اللغة التى فيها رزق يومهم ، ولذات الليالى .

أهل جبل طارق ناس من جنس خاص بالصخرة . لا أسبان هم ، ولا إنكليز . لا وطنية لهم تحملهم على المشاغب والفتن ، ولا قومية تورثهم داءى الكد والاستعمار . هم حقًّا بريئون من اليقظات القومية ، والنهضات الوطنية . فلا يكلفون أنفسهم فوق طاقتها فى عمل من أعمال الحياة ، ولا يكلفون إلا اليسير اليسير من الضرائب .

يسميهم الإنكليز « عقارب الصخرة » . وإنهم ، فى هذا الزمان المثقلة فيه كواهل الأمم بالضرائب ، لأسعد « عقارب » الدنيا شرقًا وغربًا . فلا عجب إذا كانوا لا يكترثون ، مثل صنف من الفلاسفة ، بخزعبلات السياسة ، وأباطيل السيادة والمجد . إذا سألت أحدهم : أأسبانى أنت ؟ قال : لا . أإنكليزى أنت ؟ أجاب : كلا . وما أنت ؟ أنا جبلطارقى Gibraltarian . يقول هذا وهو لا يعلم لماذا سمى الجبل باسم طارق ، ولا هو على شىء من مزايا طارق وجبله .

فإن كنا نرثى لحال من لا وطن ولا قومية لهم ، فالجبلطارقيون يرثون لحال من يجاهدون فى سبيل الأوطان .

ومن أين جاء الجبلطارقى ؟ أو أنه ما جاء من مكان عبر البحر . هل نشأ إذن فى ظل هذه الصخرة مثل الحيوانات القديمة ؟ هل هو من نسل الرينوسود أو القردة المنقرضة ؟ ليس فى تاريخ الحيوان ما يثبت حقيقة هذا الافتراض أو ينفيها . أما تاريخ الإنسان — تاريخه الحديث — فهو ينير ويعين . هو يقول إن الإسبان ، سكان هذا الجبل قبل أن احتله الإنكليز فى القرن الثامن عشر ، هجروه بعد ذلك الاحتلال ، ووقفوا فى هجرتهم فى منتصف الطريق ، بينه وبين الجزيرة ، فأسسوا لهم هناك البلدة التى تدعى اليوم سان روكه San Roque .

ولا تزال سان روكه ، مثل شقيقتها لالينيا La Lina التى هى على الحدود الإنكليزية الإسبانية — وراء الصخرة — لا تزال مأوى لبعض أولئك النازحين من جبل طارق ، وأولئك الذين لا ترغب بهم السلطة المحلية ، أى المتشردين والفقراء اللاحقين بهم .

وبعد أن نزح الإسبان من جبل طارق حل محلهم قوم الطليان . جاءوا

على الأخص من جنوا ، فرحب الإنكليز بهم ، فأقاموا فى ظل الصخرة آمنين ، وتاجروا مطمئنين ، وتناسلوا فرحين ، فكانوا الأجداد لسكان اليوم .

قلت : إن فى جبل طارق بلدتين ، بلدة هؤلاء (مراقبة) ، وبلدة الدفاع البحرى البريطانى ، وليس بينهما خيط صلة من الحرير أو الشعر . بل إن البلدتين تختلفان فى مزية أولية جوهرية . هى النطق الذى يميز الإنسان عن الحيوان . فالنطق كله ، بعجره وبجره ، عند الجبلطارقيين ، والصمت كله ، بذهبه ونحاسه ، عند الجندية والبحرية ، ومن يلوذ بهما من الإنكليز . فإن كنت طالب علم ، ولا يهمك مقدار ما فيه من الصحة ، فدونك والشارع الكبير الأوحد ، تحدث التجار فيه وأصحاب الحانات . وإن كنت تبتغى التحقيق والتدقيق فيما تسمع أو فى موضوع يصله ولو خيط من العنكبوت بالصخرة الإمبراطورية وأسرارها العسكرية ، فلا تدن من أحد العاملين فى تحصينها وإدارتها فإنهم ومن يلوذ بهم لا يحسنون على الإجمال غير لفظتين اثنتين : لا أعلم .

خرجت صباح يوم أمشى ، ولا هدف غير ما يكشفه الطريق . فرأيت شجرة بين الأشجار لا أعرف اسمها . وأنا فى هذه الحال على شىء من شواذ الطبع فأغتاظ لجهلى ، ولا أقف عند حد فى فضولى . قلت : أغتاظ ، ففرطت . فإن شجرة أجهل اسمها بين أشجار أعرفها حيثما أشاهدها ، لشجرة مكربة مضنية . إنها لتضنينى . أقول ذلك بلسانى الشرقى وإحساسى الموروث . وأما بلسانى الغربى الذى تمرن على التدقيق فى التعبير ، وأحسن شيئًا منه ، فأقول : إنها لتفسد النزهة على . ولست فى ذلك مفرطًا أو مفرطًا .

وها كها متحدية بين أشجار الصنوبر والسنديان . هى شبيهة بالسنديان وليست منه . وما هى كشجرة من عوامل الدفاع أو من أسرار الحصون والقلاع . فلعل هذا الضابط يساعد فى كشف غمى . صبحته واعتذرت ، ثم سألته قائلاً : « من فضلك ، ما اسم هذه الشجرة ؟ » ، فقال بلهجة مزنقة : « لا علم لى بالأشجار » . ثم سألت رجلاً فى ثوب مدنى أنيق ، فتأسف وأجاب جواب الضابط .

بعد ذلك بان لى فى أعالى الجبل شىء من البناء غريب أنسانى الشجرة . وكانت امرأة تدنو إذ ذاك منى ، وفى وجهها نبأ التقوى والصلاح ، فسألتها عن ذلك البناء ، فأجابت بلهجة الضابط : « لا أدرى » وهؤلاء الجنود الأربعة ، وقد خرجوا على ما يظهر متنزهين . لا بد أن يكون واحد منهم . ذاك الرقيق الإهاب الضارب إلى الاصفرار ، عالمًا بعلم النبات فسألته اسم الشجرة . وكنت وأسفاه مخطئًا فى ظنى .

ثم سألت رفيقه أن يقول لى أى يوم وصل الأسطول إلى جبل طارق ، فسمعت للمرة الرابعة أو الخامسة كلمة السر : لا أعلم .

إننا فى جبل الصمت والتكتم . ولكن الحياة تأبى الإطلاق ، وتنفر من القياس الواحد فلا بد أن نلقى حتى فى المقابر لسانًا ناطقًا . وها هو ذا تحت الشجرة التى كادت تفسد على نزهة ذلك الصباح .

كان الرجل يحرق بعض الأوراق . فسلمت ، فرد السلام بإنكليزية سليمة ، ولهجة كريمة . وقد أجاب على سؤالى الأول جوابًا استبشرت به . فما هو من الجندية ، ولا من البحرية ، ولا ممن يلوذون برجالهما أو بعيالهم . إنما هو صاحب مغسل للجنود . وقد كان فى تلك الساعة يلهو بحرق الجرائد التى تجيئه من بلاده .

فقال وهو يزيد فى نارها : تجيئنا جرائد لندن مرة واحدة فى الأسبوع ونحن نقنع بذلك . لا نريدها أكثر من مرة كل سبعة أيام . أهلنا هناك « فى إنكلتره » يشقون كل يوم بطبخة من الخوف والذعر — الحرب على الأبواب — تطبخها لهم الصحافة صباح مساء . ونحن ها هنا يجيئنا الخوف والذعر دفعة واحدة مرة كل أسبوع . فهل تصلح هذه الجرائد لغير النار . أحرقها ، وبرد — خفف عنك .

وعند ما سألته اسم الشجرة أدهشنى بثقافة عالية . فقد أعطانى الاسم وشفعه بنادرة تاريخية ، ومثل لاتينى رواه باللغة الأصلية . عجيب أمر هؤلاء الإنكليز ، فإنه يبلبل الباحثين الراغبين بالحقيقة فيهم نقداً وتقديراً .

وقفت معجبًا بذلك الرجل كل الإعجاب . أمثقف فى جامعة إكسفورد وصاحب مغسل للجنود بجبل طارق ؟ سعدت دفعة واحدة بعلمه كما يشقى هو بجرائد لندن . وقانا الله الخير إذا طمى .

قال صاحبى زاده الله علمًا وفضلاً : اسم هذه الشجرة لاتينى هو ملتا Multa ولتسميتها قصة قديمة هى أن بعض الجنود الرومانيين فى عهد يوليوس قيصر ، عصواضابطهم فقاصصهم قصاصًا قرنه بالتجويع . اعتقلهم فى معتقل بُنى بين أشجار مثل هذه الشجرة . وحرمهم الأكل أيامًا . وكانت أغصان الأشجار تتدلى فى المعتقل بينهم وهى تحمل هذا الحب ثمرتها (هو شبيه بحب الدوم) فتناول منه أحد الجنود وأكل مجازفًا بحياته ، ففرح بمجازفته ، فاقتدى به إخوانه ، فأكلوا من تلك الثمار واستمرؤوها جميعًا ، وهم يضحكون من الضابط الذى حاول تجويعهم . إذ ذاك نطق الحكيم فيهم بالكلمة التى ذهبت مثلاً : نيمو ملتاريوم إلخ ، أى ليس بين الناس حكيم هو دائمًا حكيم . وسميت الشجرة ملتا .

ومن مدهشات ما شاهدت فى ذلك الصباح راع ولا كالرعاة — شاب فى ثوب إفرنجى نظيف ، يتأبط كتابًا ، بدل أن يحمل القصب أو الناى ، ويسوق قطيعًا من المعزى . هو ذا الراعى العصرى المتمدن ! كتاب يذهب بالناى — علم يذبح الغناء والهناء ! .

وهناك من الأشجار ما يذكر بالغابات والبساتين اللبنانية — بصنوبر المتن ، بزيتون الشويفات ، بسنديان الأديرة ، بتين عمشيتا . رموز وإشارات ، لا بساتين وغابات . على أن الرمز وجماله السابغ يجتمعان فى العرائش المنورة بشتى الألوان ، الأرجوانية والبنفسجية ، والحمراء والبيضاء ، هى ذى عرائش ال « بورغنق » ومجد الصباح Morning glory والدفلى والياسمين ، تحمل إلى طيب بيروت فى ليالى صيفها . ومجد الربيع منعشًا فوق أسوار بيوتها والبساتين .

أمعنت فى الطريق المفروش بالأسفلت ، المصعد فى الجبل ، فمررت ببيوت وضيعة جميلة تحاول الاختباء بين أشجار ال « ملتا » والملول والصنوبر . هى

بيوت للضباط البريين والبحريين . وهذه أكواخ لاصقة بالصخور الشاهقة يقيم فيها بعض الفلاحين ، وهم يكتفون من المهنة بتربية الدجاج وبيع البيض إلى الجنود ، وهناك ديراً بمدرسة للراهبات فوق الطريق ، ومجموعة تحته من البنايات الكبيرة ، تصل بعضها ببعض الجسور والأروقة ، هى المستشفى العسكرى .

دنوت من المكان العالى أمامى ، القائم فوقه بناء ينشر علماً سرّىّ الخبر لمثلى . هو مركز الأنباء والإشارات البحرية ، يتبادلها والسفن الحربية والتجارية ، المستأذنة وهى فى المضيق بالدخول إلى الميناء .

وصلت إلى الثكنة العسكرية عند منتهى الطريق فى طرف الصخرة الجنوبى الغربى ، المشرف على الناحية الشرقية منها — على جون « كاتالان » الجون الجميل الذى رأيته بعدئذ من الباخرة المشرفة . أوقفنى الحرس . لا مرور عند هذا الحد بدون إذن من الحكومة .

عدت أدراجى بشىء من التعريج ، فوصلت إلى نفق فى صخرة ضخمة ، ووقفت عند كتابة محفورة إلى جانب المدخل ، فإذا هى تقول إن هذا النفق فتحه وأتمه تبرعاً جنود جلالة الملكة فى سنة ١٨٤٢ ، ثم بلهجة شعرية تندر فى الأنصاب والآثار الإنكليزية :

« كذلك كان ، وكذلك سيكون » « هو الجندى البريطانى »
« الشجاع فى الحرب » « المحب فى أيام السلم للعمل والنظام »

دخلت النفق المؤدى إلى أرض وراء الصخرة مهدها كذلك أولئك الجنود ، فبنيت فيها الثكنات . هناك فى تلك الساحة ، تحت جفن الجبل وفوق عين البحر ، تعصف الرياح على الدوام — الرياح الشديدة الباردة حتى فى الصيف . وقد كانت فى أشدها ، على ما أظن ، صباح ذاك اليوم . فوليتها ظهرى — رحت معها كما يفعل صاحب الشراع إبان العاصفة — فإذا بى عند الرأس الذى يسرع فى انحداره إلى البحر من نواحيه الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية . وإذا بى أمام صف من الخنادق المبنية بال « أسفلت » وأدراج إليها ، وأروقة وراءها وبينها ، وأبواب إلى

داخلها ، حيث تكمن المدافع التى تبرز خياشيمها من نوافذ ترى البحر ولا يراها .

وبين هذه الخنادق فوق سطوحها ، مصاطب مصونة لمدافع كبيرة أخرى ، دهنت بالدهان الأزرق جزافًا .

كذلك كان ، وكذلك سيكون . صدقت الكلمة المحفورة إلى جانب المدخل لذاك النفق . فإن أسباب الدفاع بالأمس لا تصلح اليوم ، وقد لا يصلح فى المستقبل ما كان منها صالحًا فى هذا الزمان . وهذا الصالح اليوم هو فى أماكن أعلى من هذا المكان ، تحت القنن ، وفى بطن الجبل . هناك خنادق ومصاطب ومدافع جبارة ، لا تعرف ولا ترى ، لا من البر ، ولا من البحر ، ولا من الجوّ .

أما ما يرى فى تلك المنحدرات الحادة الزوايا من البقع البيضاء الكبيرة ، فهى موضوع حدس وتكهن للمسافرين فى السفن التى تعبر المضيق . فيقولون : هى جدران للطريق المؤدى إلى رأس الجبل . ويقولون : هى بقع صخرية جرداء تظهر فى بياض سابغ ، فتخفى ظلالها على الناظر إليها من عرض البحر .

أما الحقيقة فهى غير ذلك . جبل طارق صخرة تقل فيها الينابيع ، ومياه البلدة والحصون ، قديمًا وحديثًا ، تجمع من الأمطار فى الآبار . أما آبار اليوم فهى أحواض عمومية كبيرة تتوزع منها المياه إلى البلدتين ، التجارية والعسكرية ، ومن أين تتسرب إليها مياه الأمطار؟ هو ذا السر فى تلك الجدران المبنية من الحجر الكلسى المنحوت بناء محكمًا ، على صدر الجبل ، فتتلقى الأمطار ، وتحملها إلى القنى فى أسفلها المتصلة بالأحواض .

رأيت العمال فى إحدى الساحات الصغيرة بالبلدة يحفرون خنادق أو أكواخًا يلجأ إليها الأهالى من الغزوات الجوية ، إذا وقعت الحرب . وبينما هم يحفرون عثروا على آثار القنوات القديمة التى بناها العرب للغرض نفسه . فما تغير فى جمع المياه وتوزيعها غير الطريقة شكلاً واتساعًا .

جبل طارق — كم قامت حوله ولأجله من الحروب والحصارات منذ وطأته

أقدام العرب بقيادة طارق بن زياد (٧١١ م) إلى يوم استيلاء الإنكليز عليه المرة الأخيرة (١٧٨٣) . كان يدعى قبل الفتح العربى جبل أليبه — الاسم فينيقى — ويوم احتله طارق باثنى عشر ألفاً من رجاله العرب والبربر كان فى حوزة الغوط . فدارت بينهم وبين المحتلين رحى الحرب وفى يوليو من سنة الفتح ، على شاطئ النهر القريب من المكان القائمة فيه اليوم مدينة شربش Gereg كانت الواقعة الفاصلة ، التى دامت ثلاثة أيام ، وانتهت باندحار الغوط وتقدم العرب شمالا وغرباً .

وقد حصن طارق الصخرة بما بنى من القلاع والأبراج على الشاطئ الغربى وفى أعالى الجبل . منها البرج المربع الذى لا يزال قائماً هناك . تلك الجدران الدكناء ، بين فسحات من الاخضرار وتحت أطناف من الصخور ، وإن تحدت الرواسى والسنين ، وظلت سليمة بعد كل ما شاهدت من حرب وحصار ، إن هى إلا شهيدة الزمان ، وفدية التخاذل والنسيان .

استمر حكم العرب فى جبل طارق ، على اختلاف عهودهم ودولهم ، سبعمائة وخمسين سنة . فانتزعه منهم الأسبان سنة (١٣٠٩) ، ثم فقدوه . وفى سنة (١٤٦٢) كان الفوز الأكبر لهم ، فأخرجوا العرب منه ، وزادوا فى تحصينه فظل فى حوزتهم ، بشىء من التقطع ، أكثر من مائتى سنة .

أما استيلاء الإنكليز عليه فقد كان للمرة الأولى فى الحرب الأوربية (١٧٠١ — ١٧١٤) التى أثارها ملك فرنسا الكبير لويس الرابع عشر .

ما أتفه الأمور الظاهرة التى كانت تقام من أجلها الحروب فى الماضى ! ولكنها كانت تنطوى على غيرها ، وهى الجوهرية . هى هى المطامع الاقتصادية الاستعمارية بعينها . أراد لويس الرابع عشر أن يبسط نفوذه على إسبانية بإقامة حفيده البرنس فيليب ملكاً عليها خلفاً لشارلس الثانى ، فقامت إنكلترة تتوبل لاختلال التوازن الدولى الأوربى ، فألّفت حلفاً منها ومن النمسا وهولندة والدنيمارك والبرتغال لمحاربة الفرنسيس والأسبان . دارت رحى الحرب فى أوربا بضع سنوات ، ثم امتدت إلى أسبانية ، فاحتل الأحلاف قادس ، وقررت

القيادة العامة أن تحتل كذلك جبل طارق . فأطلقت القنابل عليه فى ٢٣ يوليو سنة (١٧٠٤) ، واستمر الحصار ستة أشهر فتكلل بالنصر فى ١٠ مارس سنة (١٧٠٥) للمحاصرين .

كانت الجنود الهولندية والإنكليزية مشتركة فى ذلك الحصار . ولكن الأميرال الإنكليزى روك Rooke ضرب الضربة الأخيرة الفاصلة ، وأمر ، بدون أمر من لندن بأن يرفع فوق الصخرة العلم الإنكليزى ، فقبلت لندن بالأمر الواقع !

بيد أن ذلك الاحتلال لم يدم طويلاً ، فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، لا للإنكليز ولا للأسبان ، الذين حاصروا الصخرة فاستعادوها ، ثم فقدوها . وظل الاحتلال الإنكليزى متقلقلاً حتى الحصار الأكبر براً وبحراً (١٧٧٩ — ١٧٨٣) ، الذى يعد من أعظم حصارات التاريخ . ذاق الإنكليز فيه أشد ويلات الحرب وأمرها . ومع ذلك ، وبالرغم عن مساعدة فرنسا ، ما استطاع الإسبان أن يزحزحوهم من مراكزهم المنيعة . كانوا والصخرة صنوين . فرفع المحاصرون الحصار ، وعقدوا والمحاصرين معاهدة صلح فى ٦ فبراير سنة (١٨٨٣) .

منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا استمرت سيادة الإنكليز فى جبل طارق دون انقطاع ، وهى تزداد قوة وتمكيناً بما بنوا فيه من الحصون ، وبما حفروا من الأنفاق ، وبما أسسوا من المرافئ وردموا من البحر ، وبما حسنوا إجمالاً فى أسباب المناعة البحرية ، فغدت الصخرة أمضى الحصون وأعزها فى العالم . وظلت كذلك حتى عهد السلاح الجوى الذى نحن فيه .

نبذة من مقدمة « ملوك العرب »

كنت فى الثانية عشرة من عمرى عندما سافرت المرة الأولى إلى الولايات المتحدة . فلم أكن أعرف غير الشىء اليسير من اللغتين العربية والإفرنسية ، وما كان فى ذهنى من العرب وأخبارهم غير ما كانت تُسمعه الأمهات فى لبنان

صغارهن . هس ، جا البدوى ! والبدوى والأعرابى واحد إذا رامت الأم « بعبعًا » تخوف به أولادها .

هجرت وطنى وفى صدرى الخوف ممن أتكلم لغتهم والبغض لمن فى عروقى شىء من دمهم . والبغض والخوف هما توءما الجهل .

أما الأمة الإفرنسية فما كنت أعرف من أمم الأرض سواها . وأما أميركه فقد كنت فيما عرفته منها بعيداً عن الأم وعن المدرسة .

تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الأميركى بنفسه . ومع ذلك فلم تخلُ مما امتازت به الكأسان الأوليان . رشفت فى نيويورك الجام تلو الجام من العلوم المشوبة ، وفيها أشياء من الجهل المتلألئ وما يمازجه من الخوف والإعجاب .

غدوت بعد عشر سنين فى أميركة معجبًا بنشاط الشعب الأميركى وبحريته فى الفكر والقول والعمل ، خائفًا من نتيجة الجهاد المادى هناك ومن التكالب فى سبيل الحياة الدنيا . وما كان خوفى على الأمة الأميركية وأنا فى ذاك الحين ، فى عين نفسى ، قطب كلما اهتممت له ونقطة الدائرة فى كل ما ملت إليه . خفت أن أغلب فى ذاك الجهاد ، أشفقت على نفسى من ذاك التكالب .

ونسيت فرنسة إلا فى آدابها ، تلك الآداب التى زادتنى ضعفًا وترددًا فى مضمار الحياة . صرفتنى عن حقائق الوجود المادية ، وزينت لى فى الفنون الجميلة الحقائق المعنوية . صرت فى نيويورك كئيبًا يحمل كتابًا ، وغاويًا من غواة الفنون يمشى فى الجنائن العمومية سبهللاً ، فانفتحت أمامى أبواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور .

ولكن الآداب الإنكليزية عادت بى إلى الشعب الإنكليزى فوجدته فى أمور كثيرة ، أخلاقية واجتماعية ، أرقى من الشعب الأميركى ، أو أحب إلى من كان مثلى . فكان لى فى ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمرك ، فلم أتخلق مثل سواى من السوريين هناك بأخلاق الأميركيين كلها . والفضل فى ذلك

علىّ هو لفيلسوفهم الأكبر إمرسون الذى كان دليلى الأول إلى محاسن الإنكليز فيما كتبه عنهم وعن سجاياهم .

وقد عرّفنى إمرسون إلى كرليل ، وكان كرليل أول من عاد بى من وراء البحار إلى بلاد العرب . أجل ، وقد يستغرب قولى إنى عرفت بواسطة الكاتب الإنكليزى الكبير سيد العرب الأكبر النبى محمداً فأحسست لأول مرة بشىء من الحب للعرب وصرت أميل إلى الاستزادة من أخبارهم .

ثم فى غزواتى للكتب الإنكليزية غنمت كتاباً استوقفنى ظاهره الفخم وراقنى الصور فيه . وما كان العنوان لينبئنى بشىء أكره أو أحب . قرأت كتاب الألهمبرا فأدركت أن المؤلف يريد بالعنوان الحمراء ، وعرفت أن الحمراء هى لؤلؤة تاج العرب فى الأندلس .

لله أنت أيتها البلاد العربية التى لم يشأ الله أن أجهلك حياتى كلها ، فبعث إلىّ ، وأنا بعيد عنك ، إنكليزياً يعرفنى إلى رسولك وأميركياً يصف لى محاسن أبنائك .

بعد أن قرأت كتاب الحمراء مازج عقليتى الأميركية الإفرنسية الإنكليزية شىء من الخيال الشرقى ، فصرت أحلم بذاك المجد الماضى أحلاماً تمثلنى حياً فيه بل تمثله حياً أمامى .

عدت إلى بلادى كئيباً يحمل كتاباً ، ويرغب فى أن يكون الكتاب مئة كتاب وكتاب . وكنت لا أعرف من لغتى وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت فى سراديبها دون أن أرثى لحالى . وبينا أنا أتخبط فى دياجى اللغة عثرت على كتاب شعر أنسانى الكسائى وسيبويه وكل من علم حرفاً فى البصرة والكوفة .

جمعنى الله سبحانه وتعالى بأبى العلاء المعرى بعد أن هدانى بواسطة الفيلسوف الإنكليزى إلى الرسول العربى . قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم قرأتها مترنحاً ورحت أفاخر بأنى من الأمة التى نبغ فيها هذا الشاعر الحر ، الجسور ، الحكيم .

* * *

عدت إلى أميركة أستصحب صاحب اللزوميات ، وكنت ترجمانه هناك ، فساقتنى المهنة إلى الدائرة الشرقية فى دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين الذين صوروا لىَ الحياة رحلة فى الأرض دائمة ، وصوروا الأرض بادية عربية نبغ فيها محمد بن عبد الله القرشى وامرؤ القيس الكندى ، الشعر والنبوة والدهناء ، والواحات فى بحار من الرمال ، والنخيل فى الواحات يهمس فى أغصانها النسيم ، ويهز جذوعها السموم ، وصوت الساقية وهى تغنى للأرض المنعمة فى ظلال النخيل ، وبنية البدو تغنى لجمل الساقية — وماذا فى نيويورك ؟ .

ماذا فى نيويورك غير الضوضاء والعناء والعياء والبلاء ؟

هذا الرحالة بلغراف وترجمانه اللبنانى الذى صار بعدئذ بطريركًا عظيمًا يحدثانى عن شُمّر والقصيم والعارض والرياض . وذاك المستعرب بُركهارت وقد دخل إلى مكة حاجًّا ، مسلمًا صادقًا نقيًّا . وهذا العلامة بُرتُن يقص قصة عجيبة بطلها بزّار من سمرقند قد حمل الكيس — تفتا هندى شاش حرير يا بنات ! ليكشف له أسرار الحريم . ثم ركب العيس ، وكان دليله إبليس ، فاقتفى أثر بركهارت لغرض فى النفس ، ونظم قصيدة كفرية كفّر بها عن كل مآتيه فى التلبيس .

وهذا خليل الذى راح يهول بنصرانيته فى وجه البدو ، فقاسى فى رحلته الأهوال ، ونجا غير مرة من مخالب الاضمحلال . اضطهد فى بريدة ، وطرد من عنيزة ، وسُلب وضرب ، وترك فى النفود يهيم على وجهه ، وليس فى جيبه غير خمسة ريالات ، وليس فى قلبه ذرة من التدليس والتلبيس . الدرويش خليل ، كأنه كان يهوى الأخطار فيجذبها إليه . خليل النصرانى ، جاء بتعصب أسكتلندى يُثير فى العرب التعصب الإسلامى . خليل النصرانى الكافر ! قطوا رأسه بالسيف ! ولكن الله أخرجه من شبه الجزيرة حيًّا ليكتب كتابًا لا يموت .

وكل هؤلاء من الأجانب يسيحون فى بلاد كانت قديمًا ولا شك بلاد أجدادى ، ويخاطرون بأنفسهم فيها حبًّا بالعلم ، فيكشفون منه المخبأ ، ويجلون

المصدأ ، ويقربون البعيد ، ويغربون فى اللذيذ المفيد . وأنا فى نيويورك كثيب يحمل كتابًا ، ويطرق للمحرر الإنكليزى المتغطرس بابًا . أديب شعره طويل ، وصدره عليل ، يسرف من ذهب الحياة فى تسويد المقالات . آلة كاتبة ، يرقص حولها الهم والأمل متخاصرين . أف لها من زوجة نقاقة ، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة ، وأية عبودية أشد من عبودية الآلة الكاتبة وأخبث . طلقتها ثلاثًا ، وعدت إلى بلادى أعد العدة لرحلة تبعدنى عنها وعن الكتب والمجلات . والأدباء والأدبيات .

فى الطريق إلى صنعاء

يحس المطالع وهو يقرأ هذا الفصل المقتبس من الجزء الأول من « ملوك العرب » أنه فى بلاد العجائب أو كأنه يطالع قصة من ألف ليلة وليلة . وفيه ينجلى لك كل شىء من مقدرة الكاتب فى الوصف والتهكم فترى بعض الصور التى تزخر بها هذه الرحلة : كرمى الفخار على الرجال وهم يستعدون للرحيل ، وإطلاق البنادق والقطور ، ومجالس القات وغيرها .

ركبنا قبل انبلاج الفجر سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغى الدُكيم التى كانت يومئذ حدود السلطنة اللحجية شمالاً وفيها حامية إنكليزية من الهنود . وكانت الحملة قد سبقتنا إليها ومعها الحرس يركبون الهجن ، ورسول القاضى عبد الله العرشى إلى أمير الجيش ، وبعض المسافرين الذين أحبوا أن يرافقونا .

وكان فى الدكيم أيضًا عشرة جنود من جيش سلطان الحواشب على بن مانع ، جاؤوا بأمر منه يستقبلوننا ويصحبوننا فى بلادهم . والحوشبى لا يثقل نفسه بالعدة والثياب . ليس فى العالم جندى أخف منه حملاً ، وأشد منه بأسًا . ولا أظن أن فى جنود الأمم المتمدنة أجسامًا مثل أجسام العرب فى اليمن الأسفل . هاك الحوشبى مثلاً وجلده الأسود أو الأسمر يلمع فى نور الشمس كالنحاس المصقول ، وعضلاته الشديدة المفتولة تتحرك كالأجزاء الدقيقة فى آلة كهربية ،

وقامته المتناسقة الأعضاء تسر بالعرى فيكتفى بالفوطة يشدها على وسطه ليستر بها عورته — هو ذا معرض محاسن من صنع الله تمتع به ناظريك إذ يثب صاحبه ، والبندقية على كتفه والأمان فى قلبه ، كالغزال الشارد أمامك .

من هؤلاء الحواشب ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة مشى إلى جنبى وهو ينظر إلىّ من حين إلى حين كأنه يبغى الحديث . سرنا فى وادى دُبن ، وهو طويل يتصل شمالاً بمدينة أب ، والشمس حتى فى نيسان تشوى الضب . وكنا بدأنا فى التصعيد ، فتراءى لنا خيال أسحم على الأفق البعيد ، فوق قنن من الجبال كثيرة . فهتف الجندى الصغير قائلاً : هذا وَروَه — جبل وروه — تراه من عدن وستراه غداً من ماويه . لم أتأكد القسم الأول من مقاله لأنى لم أهتم وأنا فى عدن بالجبال . ولكنى تأكدت المبالغة فى القسم الثانى منه . رافقنا وروه يوماً واحداً وغاب عن الأبصار . وكذلك الجندى الصغير الذى تأسفت على فراقه . كان يحدثنى وهو ينقل البندق لثقله من كتف إلى كتف ، ويمشى على بؤس حاله سامد الرأس .

— العفو يا أمير حضرتك من الشام ؟ أجبته بالإيجاب .

— وهل راضية الشام بالسلطان ؟ أخبرته بأن حكم السلطان فيها قد انتهى ، فما سره الخبر ، فقال : السلطان رجل طيب يا أمير ، ما فيه شر .

سألته : وهل تحب الأتراك ؟ فهز رأسه وأشار بعينيه أن نعم ثم قال : سعيد باشا رجل طيب . كنا فى أيامه مستريحين ، وكانت الظلط كثيرة . أما الآن يا أمير فلا سعيد ولا ظلط . انظر إلى ذاك الجبل . وراءه الصبيحة أشر العرب . وهم دائماً يعتدون علينا نحن الحواشب المحافظين على الأمن . الحوشبى فقير ولكنه منيع ، ورفع بندقيته مشيراً إليها ، ثم قال : سلامة القوافل فى يده .

أما الصبيحة يا حضرة الأمير فهم يحاربوننا لأنهم لا يحبون الأمن . ونحن نهجر حقولنا ومواشينا ورزقنا لنحمل هذا البندق ، لنوجد فى البلاد . الأمن للعباد ، وحضرة الأمير — العفو — لا يقدر أن يسافر وحده ، لا والله . بنادقنا

وحياتنا ملك السلطان ، وهى الآن تحت أمر الأمير . هل أنتم تحكمون فى بلادكم ؟ .

قلت له : إن اسمى أمين لا أمير ، وإنى محكوم مثلكم لا حاكم .

— ومن يحكمك يا حضرة الكامل ؟

— يحكمنى الآن الإنكليز . هل تحب الإنكليز ؟

— يقول السلطان إن الإنكليز ما فيهم شر .

— وهل الحواشب يحبون سلطانهم ؟

— أى والله نحبه ، على بن مانع رجل طيب ، ما فيه شر . ولكن من هو الحوشبى وما هى أهميته ؟ البندق على كتفه ، والموت قدامه ، ولا يعرف فى الليل إذا كانت تشرق عليه الشمس .

سرنا فى الوادى وادى دُبن والجبال حولنا وأمامنا تمنع عنا الهواء ولا تقينا حر الشمس ، فوصلنا الظهر إلى الخُنُدق وهى قرية خيامها من القش والغرف ، فيها سمسرة للقوافل والمسافرين . فاستَرحنا هناك ساعة الغداء ، وأرسلنا هجانًا يحمل منا كلمة سلام إلى سمو السلطان على وينبئه بقدومنا .

استأنفنا السير بعد الظهر فالتقينا فى نصف الطريق بين الخُندُق والمسيمير بفرقة أخرى من جيش السلطان ، يتقدمها ابنه الصغير راكبًا جواداً رائعًا . جاؤوا من قبله يلاقوننا ، فدوت فى ذاك الوادى أصوات البنادق ترحيبًا . أطلقوا ثلاث طلقات فأجبناهم بمثلها ، ورحنا وابن السلطان يتقدمنا ورجله الحافية فى الركاب ، ويده اليمنى على عمامته الكبيرة الرفيعة ، الطويلة الذؤابة الكثيرة الألوان كأنها عمامة العيد ، ترقص فرحًا على رأسه ، وهو على ظهر الجواد أثبت منها .

وصلنا عند الغروب إلى قصر السلطان فى المسيمير ، وهى قرية بيوتها من الحجر واللبن قائمة على ربوة خضراء ، ينساب عند سفحها فى وادى دُبن سلسبيل فضى ، إلى جنبيه الحقول المزروعة وهى تتموج حول أكواخ من القش . إن الجمال الذى يجلبب المكان لينبىء بالسلم القروى ، ولكنه مفقود . فلا فى سلطنة ابن مانع وجدناه ولا فى قلبه . ومن المسئول ؟ سيجيب السلطان

على سؤالنا. هذه جنوده تطلق البنادق ثانية ولاء لاعداء تأهيلاً لا تهويلا .

دخلنا إلى بيت فى القصر أعد للضيوف . وبعد قليل جاء سموه للسلام ، يتبعه الخدم وبين أيديهم أطباق الطعام : خبز بسمن وسكر ، ومرق وبرغل ولحم وعسل . فجلسنا فى حلقة على الأرض ننطح بأيدينا الزاد . وكأن السلطان ، وهو ينظر إلينا ، أعجب بسنى البرغل سفاً فقال : أنت منا يا أمين ! أنت والله منا . . .

كان السلطان على نحيلاً كالخيال ، عصبى المزاج ، حاد الطبع ، حر الكلمة . حدثنا بعد العشاء عن أحواله قال : أنا بين أربعة يا أمين ، والأربعة يقصرون حياتى ؛ هذا ابنى وهذه لحيتى البيضاء . هو ابنى الوحيد يا أمين ، ولكنى أذبحه والله ولا أسلمه رهينة لأحد ، أما الأربعة فالواحد منهم فوق [١] يشهر علينا الحرب لأننا هادئون ساكتون لا نعتدى على أحد . والآخر تحت [٢] يغزونا لظنه أننا أغنياء وأن خزنة الإنكليز تحت أمرنا . والثالث هناك [٣] لا يخاف الله . والرابع [٤] عدونا اليوم ، صديقنا غداً ، لا نعرف والله متى ينقلب ولماذا ينقلب ! وعلينا أن نحاربهم كلهم . وإننا والله نحاربهم يا أمين ، ونحاربهم حتى نفنيهم أو يفنونا ... لا والله . لا نأخذ من القوافل إلا مجيدياً واحداً على كل جمل . والإمام يأخذ مجيدين وصاحب لحج يأخذ ثلاثة .

— وكم تأخذون مشاهرة من الإنكليز ؟

نظر السلطان على إلىّ ويده على لحيته ، وثلاثة أصابع من الأخرى مرفوعة ، وقال ثلاثمائة روبية وهى والله غير كاملة . يدفعونها لنا كل ستة أشهر ولا يدفعون غير ألف وستمائة روبية . أحسبها . وعلينا أن نؤمن للقوافل الطرق ، وأن نطعم أهلنا ورجالنا ، وعندنا قبائل يذكروننا حين يجوعون وينسوننا حين يشبعون . الإنكليز ضرورة يا أمين .

---

(١) إمام صنعاء الإمام يحيى .

(٢) عرب الصبيحة .

(٣) عرب الضالع جيران الحواشب شرقاً .

(٤) سلطان لحج .

قلت : ولو دفع لك الإمام مشاهرة مثل الإنكليز أتتركهم وتواليه ؟

فأجاب على الفور : لا والله . أنا متعاهد والإنكليز فلا أخلف . وسأبقى صديقهم دائمًا . أى والله . الإنكليز يا أمين يعقلون . عندهم حكمة كما عندهم مال . نعم هم غير مسلمين ، والمسلمون إخوان . ولكن القلب يعرف الأخ يا أمين والسياسة لا تعرف غير الضرورة .

إن الحواشب مثل الشوافع فى اليمن وعسير يكرهون الإمام ، لا لأنه عدوهم فى الحرب فقط أى فى ضرورات السياسة ، بل لأنه عدوهم كذلك فى الدين ، وفى المذهب . هو زيدى شيعى ، وهم سنيون .

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة وأعلمناه أننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليودعنا ثانيًا . وفهمنا منه أنه قبل بذلك . إلا أننا فى صباح اليوم التالى ، بينا كان المكارون والخدم يحمّلون دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين فى جناح من القصر قبالة الجناح الذى يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذى كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بغتة أن إناء من الفخار تكسر فيه ، فظننا أنه وقع من السطح . ولكن إناء آخر تبعه — رأيناه يُرمى من النافذة ولم نرَ الرامى — فأصاب أحد العساكر فرفع صوته شاكيًا . ثم جفنة ، ثم قطعة أخرى من الفخار تحطمت بين أقدام البغال ، فعلت الضجة فى الحوش وسمعنا رجالنا يصيحون : هم يطردوننا عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل إلى السهل فالنهر وقلبنا — أقول قلبى ولا أتهم رفيقى — يختلج حنقًا ورعبًا ، ظننا أننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشبى عند ما وصلنا إلى النهر . ولكننا قبل أن اجتزناه سمعنا أصواتًا تنادى : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فأطلقوا إذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقى : هو ذا الخطر الذى نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم منا فإذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم

الأطباق ومعهم بضعة عساكر . جاءونا بالفطور ! أى بالله . كيف نسافر قبل أن نفطر ؟ وكيف نسافر قبل أن نودع السلطان الذى نهض باكراً للوداع ؟

سألناهم عن الفخار الذى رمونا به ، فأخبرونا أن السلطانة ، وهى فى خدرها رأتنا من على السطح فى أهبة الرحيل، فنهضت كذلك باكراً من أجلنا . فأرادت تنبيه الخدم النائمين فى الطابق الأسفل ولم تشأ أن تسمعنا صوتها أو ترينا من النافذة وجهها فرمتهم بالفخار تستفيقهم لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام . الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوهم بالفطور ، وأطلقوا الرصاص إذا كانوا لا يقفون .

أكثر الله أيتها السلطانة من فخارك ، وجعلنا السنة فخارك . إنك فى الضيافة شاعرة الأقران ، وفى البلاد العربية فريدة الزمان . كيف لا وأنت السيف فى إكرام الضيف . تضربين من أجلنا الكسل ، وتلحقيننا بالعسل .

تروّعين أيتها الحوشبية الألمعية ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضوع إعجابنا حتى فى بلاد الزيود ، التى تنسى المرء الحبيب والمعبود . وقد تنسى الغريبة الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت فى ماويه أول بلد من بلدان الزيود[1] شمالى عدن .

دخلنا فى أصيل ذاك النهار وهى مثل المسيمير مختبئة فى الجبل وراء الوادى الذى اجتزناه . فشنف آذاننا لما كنا مصعدين إليها صوت كان وقعه جميلاً فى ذاك الوادى الموحش وفى تلك الساعة . فاستأنسنا به أيما استئناس . كأننا عند حدود الإمام عدنا إلى المدينة والنظام . ولما بلغنا رأس العقبة رأينا على سطح من السطوح صاحب ذاك الصوت ، وهو جندى بيده البرزان (البوق) ينفخ فيه مرحباً بنا باسم أمير الجيش .

وكانت فاتحة الألطاف . فلما دنونا من القصر سمعنا الموسيقى العسكرية تعزف نشيد اليمن الوطنى ورأينا فرقة من الجنود النظامية مصطفة خارج السور

---

(١) الزيود ينتسبون إلى زيد بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب .

لاستقبالنا وعلى رأسها ضابط تركى ، فترجلنا نرد السلام ، ودخلنا البوابة إلى الحوش بين صفوف من العساكر المسترسلى الشعور ، اللابسى القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل ، المسلحين بالبنادق والجنبيات . وعندما وصلنا إلى الباب يتقدمنا كاتب سر الأمير واثنان من رجاله ، أوقفنا الحارس هناك ونادى ، بكلمة ، حارسًا آخر داخل القصر فجاء الجواب مؤذنًا بالدخول .

دخلنا وكانت بداية الرعب والكرب ، صعدنا فى درج لولبى مظلم ، ذكرتنى درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها دكة ، وعلى كل دكة واحد أو اثنان من ذوى الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ، التى تفوح منها رائحة النيل الطرى السائل كذلك على أجسامهم[1] كنت وأنا أتلمس طريقًا أتمثل القلعة بل السجن فى ذاك القصر وأتصور نفسى أسيراً فيه ، فجاء الاضطراب مع التقزز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكرى ، وما هى إلا فاتحة الكروب ، فعند ما وصلنا إلى الطابق الأخير أوقفنا الحرس ثانية أمام باب صغير ، ثم دخلنا فإذا نحن فى غرفة صغيرة نوافذها مقفلة إلا واحدة منها ، وهواؤها وقد امتزج بالدخان كثيف فاسد ، وأرضها مفروشة بالقش والحشيش ، وإلى جانب الأربعة الحيطان عمائم بيضاء كبيرة ، أصحابها جالسون على الأرض صفوفًا ملزوزة ، وكلهم فى تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون[2] وفى الزاوية عند منضدة صغيرة ، إلى جنبها مداعة ، بين أكمة من الأوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا إليه كاتب الأسرار ، فعرفنا أنه السيد الأمجد على بن الوزير أمير جيش الإمام فى لواء تعز .

---

(١) هم يغمسون ثيابهم بالنيل ويلبسونها قبل أن تنشف ليسيل الصباغ على أجسامهم ويدخلها فيسد المسام من الجلد ويقيهم حسب اعتقادهم من البرد . وقد قيل لنا إن عساكر الإمام وكثيرين من أهل اليمن يتنيلون لا اتقاء للبرد بل حداداً على الحسين . على أن الوهم فى هذه العادة أصبح من التقليد كما يظهر لأن السادة وهم أولى بالحداد لا ينيلون ثيابهم .

(٢) ساعة القات عند أهل اليمن مثل ساعة الشاى عند الإنكليز . ولكن القات غير الشاى . القات حشيشهم وأفيونهم والمسكر عندهم وهم يدمنونه إدمان الأوربيين الخمر .

صافحناه وهو جالس كأنه أحد ملوك اليمن فى الزمن الغابر السعيد ، فأشار إلى فتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ، وكان كل من أولئك الأجلاء المحترمين ينظر إلينا شزراً كأنه يلتمس لنفسه عذراً من مجرد النظر . وما أظن أننا ظفرنا بشعاع من العطف فى تلك العيون ، ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح أو التساهل .

بعد أن سلمنا على الأمير قدمنا له كتاباً من القاضى عبد الله العرشى وفيه يعرفه إما خطأ وإما تلطفاً ، إلى السيد[1] أمين الريحانى ، فظننى حضرته مسلماً من أشراف المسلمين وأراد أن يعرف إلى أى الفرعين أنتسب ، فسألنى قائلا : هل أنت حسنى أو حسينى ؟

وقع السؤال علىّ كالصاعقة ، فبلبل الخاطر منى لأول وهلة وعقل اللسان ، فجالت فى ذهنى بل جرت كمجرى البرق صور كلها سوداء تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الإنكليز بالخطر على المسيحيين ؟ أفلم يحذرنا عرب عدن وحج من الزيود المتعصبين ؟ وها نحن فى مجلس أميرهم وعلمائهم ، وفى قلعة ظلماتها كظلمات السجن أو أشد ، وروائحها مثل نظرات أصحاب العمائم بل أحدّ ، ولا نزال والحمد لله فى بداية الرحلة ، وهل أنت حسنى أو حسينى ؟

جاوب يا فتى . هل تكذب على الأمير فتنتسب ، وما الحسن وما الحسين فى مثل تلك الساعة ؟ أذكر أنى فى خمس لحظات غيرت دينى خمس مرات ، فكنت أنتقل كالبرق من الحسن ، إلى مارون ، إلى الحسين ، إلى دروين . أما إذا اكتشف الأمير بعدئذ حقيقة دينك — أصدقه بالخبر يا رجل ولكن — هل تعلن أمام هذا الجمع الزيدى الرهيب مارونيتك أو مسيحيتك أو دروزيتك ، قد يوقفونك فيأسرونك ، يرجعونك إلى حيث جئت ، هذا أخف ما فى البلية جهة أخرى أشدها .

جالت هذه الصور والسؤالات فى نفسى ، جرت مجرى الكهرباء ،

---

(١) لا يدعى سيداً فى اليمن غير من كان من السلالة النبوية . وليس هناك غير طبقتين من الناس ، السادة وهم الذين ينتسبون إلى الحسن أو إلى الحسين ، والعرب وهم الفلاحون والبدو والحضر .

أثناء ذلك أسير خوف أشد من خوفى ساعة أطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور . وما خفت على حياتى خوفى من تعرقل مسعاى — من الفشل ، من الرجوع إلى عدن مدحوراً مذموماً — ولكنه سبحانه ، بعد أن غيرت فكرى خمس مرات فى خمس لحظات ، فتح على فقلت مجيباً : أنا عربى يا حضرة الأمير ، أحترم كل المذاهب الإسلامية ، وأحب كل العرب ، وأتمثل دائماً فى مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغلغل فى صميم فؤادى

أظن أن الأمير استحسن الجواب أو أنه أحسن أمام العلماء المداراة . وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بش لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه فى سلامة وتبادلنا وإياه الثقة والولاء . فقال يعتب على جوابى مخاطباً الأمير : حضرته من سادات لبنان .

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والاقتناع وغير الحديث دون أن يبعد كثيراً عن الدين . بدأ الأمير على وهو فصيح اللسان بخطبة رأسها النبى والإسلام وذيلها أولئك الذين يفسدون بالبدع الدين . يتقربون حباً بالمال أو السيادة من الإفرنج ويدنسون الشرف النبوى بالنياشين الإنكليزية . يوالون الكفار ويفتحون لهم حتى أبواب الحرمين . . . إلى أن قال : الإيمان بالله رأس الفلاح والصلاح ، والجهاد فى سبيل الله واجب على كل مسلم سلم إيمانه . وفى سبيل من يجاهد الملك حسين وأولاده ؟ فى سبيل الله ؟ أستغفر الله .

فتصدى قسطنطين للدفاع عن الملك وقلت أنا كلمة أثبت ما قال الرفيق فيما يختص برفضه المعاهدة مع الإنكليز . ثم قلت وأنا أتوق إلى الهواء : قد يريد الأمير أن يصلى المغرب . فأذن لنا بالانصراف وأمر كاتب سره ورجاله أن يصحبونا إلى المضيف ويعتنوا بأمرنا . صافحناه مودعين فلم يقف لنا ولا وقف أحد من العلماء . فى مجالس القات نقل الترهات .

فى ظل الشراع

« فى ظل الشراع » كتبه المؤلف وهو مسافر من البحرين إلى العقير فى الحساء . وإنك لتشعر عند اطلاعك على هذا الفصل من « ملوك العرب » بشوق إلى السفر بالجلبوت ولو مرة واحدة فى حياتك . « شلنا وتوكلنا على الله » .

من حسنات الأسفار تنوع أسبابها وطرقها . وإن الإبطاء فى القديم منها أحب إلى السائح من الإبطاء فى الحديث الذى اخترع ليطارد الريح فينهب كما يقال المسافات . ما الفائدة إذاً من بخار لا يحسن النهب ؟ أبحرت من عدن ووجهتى ابن سعود فاجتزت أولاً بحر الهند فى باخرة كبيرة فخمة الرياش معتدلة فى سيرها . ثم خليج العجم ، فصغرت الباخرة ، وبخست العدة ، وطالت علينا المسافة والأيام . ثم قطعت فيافى العراق بين البصرة وبغداد فى قطار مخلع مرجرج — هو أثر من آثار الحرب — لا شك أن قطار الشحن فى أميركة أسرع منه ثم عدت من بغداد فى مركب من مراكب دجلة وقد آليت على نفسى ألا أكون غير شرقى كسول فلا أعد الساعات ولا أحاسب البخار والآلات. فكانت السفرة لذلك جميلة ، قصرت وإن تعددت أيامها . ثم فى رجوعى من البصرة إلى البحرين خبرت فى البواخر أبطأها سيراً فقلت : تباركت الأقدار فى الأسفار . هى تبدّل فى الأسباب التى تزداد إبطاء كلما قربنا من محجتنا ، فنتمرن أثناء ذلك على الصبر والتجمل ، وعلى التأمل والتفكير . وسنصل إلى تلك المحجة بالرغم عن طول المسافات وبطء المطايا البخارية والحيوانية ، اللهم إذا ثبتنا فى السير والترحال .

قد كان سرورى فى خروجى من البحرين مثل سرورى فى الوصول إليها . كيف لا وكل خطوة الآن تدنينى من البغية القصوى ، فقد ذللت من العقبات البحر والإنكليز ولم يبق أمامى غير زاوية من الخليج تأبى البخار ، وأرض لا تلين لغير الإبل . إن الساحل فى تلك الزاوية، جنوباً بغرب من البحرين ، على

مسافة أربعين ميلا من المنامة ، هو أول ما نشاهده من ملك ابن السعود . هناك العقير وشاطىء الأحساء الذى يرى من مكان فى آخر الجزيرة يدعى رأس البر . أما المسافة بين البلدين فهى رهن الشراع ، والشراع رهن الرياح . فإذا لانت كان حظك من السفر على طريقة الأجداد ست ساعات فقط . وإذا عارضت تفوز بالثلاثين . وقد تتجاوز الثلاثين إذا كنت إلى « نبتون » من المقربين .

أحبنى إله البحر فاستبقانى فى مجلسى بالجلبوت[1] نهاراً واحداً وليلتين . إذ بعد أن خرجنا من مياه المنامة مساء سكنت الريح ولم تتحرك بما يرضى الله والشراع حتى انتصاف الليلة الثانية . وكنت أثناء ذلك أذكر القصيبى بالخير وأشكره خصوصاً على كرسى جعلته سريرى وعلى طاه أنعشنى بشىء من المرق . وبينما أنا نائم فى الليلة الثانية ، أو بالحرى مرمى كطرد فى القبة وقد برد الدم منى وتعقدت الأعصاب ، سمعت صوت الناخوذاه يصدر الأوامر برفع الشراع ، وسمعت الملاحين يرددون إنشاداً : شلنا وتوكلنا على الله ، شلنا — وتوكلنا على الله فتحركتُ فى معقلى الصغير وقد أنعشنى الهواء كما أنعش من الجلبوت الشراع . وشكرت مسكّن الرياح ومثيرها . فقلت : لا شيل يقينًا لولاه ، ولا توكل على على سواه — شلنا وتوكلنا على الله .

كنا فى الهجيع الثانى من الليل قريبين من بر ظننته الأحساء فما صدق الظن . وشد ما كانت دهشتى وخيبتى لما علمت أننا لا نزال عند بر الجزيرة . على أن الرياح تجارى إذا شاءت البخار ، وتسبق الحديد الدوار . ولا أظنك إذا كنت ملاحًا تمارينى فى ذلك . أجل ، عند ما ينتفض فيمتلى الشراع ، فقل للمسافات : الوداع . إن هى إلا ساعة حتى اجتزنا رأس البر ، وكان الهواء قد أثقل جفنى فنمت قليلاً ، ثم أيقظنى صوت الملاحين وهم إذ ذاك يشتغلون فى قلب الشراع طوعًا للريح ويرددون : صلّ على النبى صل عالا النابى ! وربك

(١) الجلبوت مركب شراعى صدره ، وهو للبضاعة ، مرتفع مستطيل . وفى مؤخره قبة أو علية مسافرين يسميها الملاحون عرشة. وهو إذا كان كبيراً شبيه بالمهيلة فى العراق وبالسنبوك فى البحر الأحمر. إذا كان صغيراً فلا يكون له عرشة فيشبه إذ ذاك البلم . أما اسمه جلبوت ، ولا يسمى كذلك إلا فى بحرين ، فهو على ما أظن تحريف jolly boat فى الإنكليزية أى مركب للنزهة لطيف .

أيها القارئ ما سمعت فى أنغام الليل على المياه أطرب منها . إلا أن يكون صوت المؤذن فى الخليج وهو يؤذن الفجر . ليس فى صلوات الأمم كلها أدعى منه إلى الورع والخشوع ، وقلّ فيها ما هو أجمل وقعاً فى النفس من صلاة الملاّح فى ظل الشراع .

صلى إخوانى الفجر ، عند ما دخلنا ميناء العقير ، ورفعوا العلم ، علم ابن سعود ، وهو أخضر ذو حاشية بيضاء مكتوب عليه : لا إله إلا الله . وقد كان ينتظرنا هناك على الرصيف السيد هاشم وأمير القصر ، فمشينا معهما إلى البيت المعد للضيوف ، وفيه سرير أبهجنى مرآه . وأعجبت كذلك بذوق رفيقى الذى علم السبب فى إبطاء السفينة وقرأ فى وجهى قصة الليلتين ، فتركنى والسرير وانصرف .

ذكرت الأمير والقصر . فلا يظنن القارئ أن القصر قصر وأن الأمير أمير . بل هى أسماء اصطلح أهل نجد عليها . فهم لا يرغبون فى الألقاب بل يزدرونها ، ولا يرون غير المساواة ، وقد ساوى بينهم دين التوحيد ، شرعاً وسنة . أما إذا شاء إمامهم أن يسمى عماله أمراء ، وقد يتضمن ذلك التحقير لمن يدّعون النبالة ولا يستحقونها ، فهم لا يعترضون . وإذا شاء النجدى أن يسمى خربة له فى الصحراء قصراً فلا الإمام يعترض ولا الرعية . أما الأمير الحقيقى عندهم فهو من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به أحداً ، ولا يخاف ولا يرتجى سواه . وأما القصر الحقيقى فهو المسجد .

ليست العقير بمدينة أو قرية ولا هى حتى مضرب من مضارب البدو . إنما العقير اسم لقصر من القصور التى ذكرت ، ولجمرك من جمارك نجد فى الأحساء على ساحل الخليج . العقير هى إحدى موانئ السلطان الثلاثة يتبعها القطيف والجُبَيل شمالا منها . ولكنها موانئ قلما يرى فيها غير المراكب الشراعية ومن العقير تبدأ الطريق الشرقية إلى نجد .

أما القصر فهو بناء كبير مستطيل يقيم فى جناح منه الأمير والضيوف ، ويستخدم الجناح الآخر للجمرك وللحامية التى لا تتجاوز العشرة الأنفار . وأمام القصر على الساحل ساحة كبيرة تمرح فيها الإبل وتنزل إليها البضاعة ،

فتتبادل سفن الصحراء وسفن اليم أحمالها . الخام والأرز والسكر من بمباى والنفط من عبّادان — احملها يا بعير إلى ما وراء الدهناء . والتمر من الحساء والجلود والصوف من سدير والوشم ، والسمن من الخرج والأفلاج — خذها يا جلبوت إلى البحرين لتنقل من هناك إلى ما دون الخليج والبحار .

ومن فلسفته :

بذور للزارعين

إن حسنة واحدة تأتيها . خيرٌ من ليال بالصلاة تحييها .
إن الأمين وإن كان كنوداً . خير من المدغل وإن كان هجودا
إن التعبد لغى الصالحات . لا فى تمتمة الصلوات .
وربَّ صغار يلعبون . أصدق إيمانًا من شيوخٍ يتورعون .
وربَّ محسنة فى موبقات الوجود . أصح دينًا من راهبات السجود .
وربَّ كافرٍ عمال للخير . أحب إلى الله من راهب فى الدير .
السالكون عملا وفكراً . خير من السالكين ذكرا .
أنت السالك . يا من تطابق بين أقوالك وأعمالك .
الندامة حبًّا بالغفران . كالإحسان حبًّا بالشكران .
وقد قال بلزاك — الندامة الشهرية . إنما هى خباثة أبدية .

المواساة ، خير العبادات . وممرضة تضمد جرح الشرير خير ممن يصلون من أجله .

إن روائح الأدوية عند من أحبت أن تخدم الله لأذكى من رائحة البخور . والنور الضئيل المنبعث من عين المريض الذابلة لأجمل من نور الشموع فى الهيكل .

لنخدم الله بالأعمال . ولنسبحه بالأعمال .

• • •

الحكيم من وجد سعادته فى عمله فلا يشغل فكره ولا يضيع وقته فى التفتيش عنها فى البيت أو فى المدينة أو فى الجبال أو فى قصور الوهم والخيال . ومن يتلاهى قانطًا فى تشريح نفسه وأفكاره فليقف على أسباب بؤسه وشدته كمن يزرع غصنًا من الورد ويقتلعه كل يوم ليستطلع حال نموه . غصن نفسك تعهده بالتربية بدلَ أن تقتلعه صباحًا ومساء لترى ما إذا كانت ظهرت فيه جذور السعادة أم لا . عملك واظب عليه فتنسى أنك سعيد وهذه لعمرى السعادة بعينها .

* * *

كل عمل يساعد على نمو قوى الإنسان الحيوية وحفظها ، جسدية كانت أو عقلية أو روحية وعلى حصر لوازم الحياة فيما يتطلبه الناموس الطبيعى فقط هو عمل صالح شريف .

* * *

الحكيم من صار إلى غرضه دون أن يلوى على شىء مما حوله من أشواك الضغائن والأحقاد . ومن أشباح اللؤم والفساد .

سر أخى فى أمان الله ولا تقف بعد أن تخطو الخطوة الأولى . لا تقف فتُسبق . ولا تتلفت وراءك فتسقط . نحن فى زمن قد يكون الوقوف فيه تقهقراً .

سر فى أمان الله وخذ هذا البيت من الشعر ردده فى طريقك كلما اجتزت عقبة من العقبات .

وما تجهمنى ليـــل ولا بلد ولا تكائدنى عن حاجتى سفرُ

العمل هو يد السعادة اليمنى ويدها اليسرى الاقتصاد .

* * *

لتكن غايتك أكبر من مقدرتك فيصبح عملك اليوم أحسن من عملك البارح وعمل الغد أحسن من عمل اليوم .

* * *

الفضيلة الكبرى فى الأعمال هى أن يكون كل عمل بذاته الغاية والواسطة . أن تكون لذته فيه لا فى نتيجته .

السر فى النجاح فى أى عمل كان هو أن تقضى نصف وقتك مفكراً ونصفه عاملاً فتعرف إذ ذاك غرضك وتسير تواً إليه . تعرف إذ ذاك الطريق القويمة إلى محجتك فتسلكها. وكم أناس يفشلون لأنهم لا يعرفون حق المعرفة محجتهم أو لا يهتدون إذا عرفوها إلى أقرب وأقوم الطرق إليها . فهم ينكتون فى التراب كالدجاج ويكثرون من الحركة التى لا بركة فيها ومن الصياح الذى يجفل أطيار الفلاح فيثيرون الغبار ويزعجون الجيران . والجوهرة التى يطلبونها تختفى أثناء ذلك تحت التراب الذى ينكتون فيه ويصيحون . فلو عملوا كالحكماء لا كالدجاج فبحثوا على مهلهم مفكرين لما كانوا يزعجون أحداً بغبارهم وصياحهم ولما كانت حركتهم قليلة البركة . لو فتحوا عيونهم وتبصروا لما كانوا يدوسون بأرجلهم الجوهرة التى يطلبونها .

إن مظاهر الحياة وحدودها عند الغربيين اليوم لواضحة جلية . ولا ظل يصل طرفى البياض والسواد فى حالهم الاجتماعية . لا غسق يصل ليلهم بنهارهم ولا طريق تجمع بين عمرانهم ودمارهم ؛ فهذه عندهم منطقة الغناء. وتلك منطقة الفقر والشقاء. هذه سهول العمل والتجارة . وتلك حزون البطالة والقذارة . هنا فريق العلماء والحكماء . وهناك جموع خيم عليهم الجهل والتعصب والبلاء . فالفقير عندهم هو الفقر مجسداً . والغنى هو الغناء موحداً . والغريب فى أمر فقرهم وغنائهم هو أن البقرات العجاف اللاتى تأكلهن البقرات السمان كل يوم يتضاعفن بالنسبة إلى تعدى هؤلاء عليهن. هذه حال الغربيين النازعين اليوم إلى الاشتراكية ، وأما حالنا فليلنا لا يعرف من نهارنا . وعمراننا لا ينفصل عن دمارنا . إنما نحن ظل الأشياء لا فقر عندنا ولا غناء ولا علم يذكر ولا جهل ولا عمل ولا بطالة . غريب أمر الشرقيين فما هم فى حياتهم سوى حرف وصل بين الأضداد . وقد تكون هذه حقيقة الحياة وقد يكون الحق فى جانبنا . ولكنا إزاء الغربيين الذين بدأوا يزاحموننا فى أرضنا نؤكل لا محال كما تؤكل عندهم البقرات العجاف كل يوم إذا كنا لا نخرج من ظل الأشياء ونشمر عن ساعد الجد والعناء .

• • •

إن البلاء لمستقر . فى جهاد الإنسان المستمر .

إن رأس الشقاء البشرى . فى هذا الازدحام الحضرى .

أحب فى صديقى الإباءة . أكثر من المروءة . أحب منه الأنفة وإن كان فيها عنيفًا . ولا أحب الصغارة وإن كان فيها لطيفًا .

الصديق الأبى الأنوف وإن جمد وجه وداده . خير ممن يقبلك متشوقًا كل مرة يراك وقلبه كتربة أجداده .

الحر الكريم يظل صديقك وإن عاداك . والخسيس اللئيم . هو عدوك وإن والاك .

لا تدقق فى درس أخلاق صديقك « وفتلته » . إن كنت تطمع فى دوام محبته .

لا تتوقع من صديقك أن ينصرك إذا كنت مخطئًا . ولا أن يجد بأمرك إذا كنت فيه بطيئًا .

• • •

الصداقة الحقيقية مثل كل عمل عظيم هى التى يشترك فيها القلب والعقل والضمير . فالشعور إذ ذاك يكون غذاءها . والإدراك مصباحها . والعدل ميزان الاثنين . وإن رجحت إحدى كفتى الميزان فسير الصداقة إلى الامتهان . وتصبح أخيراً كعروس الشعر أو كبنت الحوان أى إنها تصير إما خيالية وإما مادية .فتعيش يومها مشوهة ، إما فى الحواس ، وإما فى الأوهام . وفى كلا الحالين . لا عدل ولا لذة فيها للصديقين .

• • •

الحياة مضيق بين أبديتين . ووميض برق بين غيمتين غامضتين .

إذا تخاصم من أصدقائك اثنان . لا تسبق فى الإصلاح بينهما الزمان . فهو للعداء . خير دواء . وإن عاقبة الإسراع فى وصل حبل الوداد . هى غالبًا كعاقبة الجرح المندمل على فساد .

• • •

أشرف الحب حب من لا يدعك تشعر بولائه . قبل انقضائه ؛ فهو لا ينقدك وداده فى السراء . ليتقاضاكه مع الفائدة فى الضراء .

* * *

شر الأصدقاء صديق لا يعتبرك من أكفائه فإن ظن نفسه أكبر منك يهبطك فى حبه وتقلبه . وإن كان أصغر منك يغيظك فى تودده وتحببه .

* * *

أحب من الجمال ما كان فيه شيء من القباحة . ومن الحركة فى الجمال ما كان فيها كياسة وملاحة . ومن السكوت فى الجمال ما كان فيه كثير من الفصاحة .

أفضّل أن أشاهد كل يوم عشر مرات سحنة منكرة وفيها بهاء وغرابة وذكاء . على أن أرى مرة فى الشهر طلعة جميلة خاسئة والنفس فيها جدباء .

* * *

من نهج لحاجاته المادية وغاياته الدنيوية منهج التدين والورع الكاذب والرياء والتنطع كان بعيداً عن الدين وعن الله بعد هذه الأرض عن أبعد السيارات من الشمس .

الدين الحقيّ ما أنار القلب من الإنسان والضمير فيهديه فى الحياة الدنيا خير طريق إلى خير الأبواب فى الآخرة . ومتى كان ضمير جارى كنور الشمس حيًّا نقيًّا وقلبه كوردة تفتح فى الفجر لتستقبل ندى السماء لا فرق إذ ذاك عندى أن ذكر مع الدراويش أو سجد مع اليسوعيين أو اغتسل فى نهر القنج مع البوذيين . فهو المؤمن الحقيّ . هو الصادق فى دينه . هو رجل الله الأمين .

* * *

بحث الفلاسفة الأولون فى الكون والحياة فبدأوا بأبحاثهم من العلة إلى المعلول من المركب إلى البسيط من الأعلى إلى الأدنى . بحثوا فعللوا فاعتلوا فماتوا وما أورثوا العالم سوى الأوهام والشكوك . وعلماء اليوم يقلبون الآية فيبحثون فى الحشرات والجواهر الحية والمكروبات ابتغاء الوصول إلى ما بدأ به فلاسفة الماضى . وهؤلاء

يحالون ويركبون ويعللون فيعتلون فيموتون قبل أن يصلوا إلى ما يزيل شيئًا من الأوهام والشكوك . النتيجة إذاً واحدة إن صعدنا من الأدنى إلى الأعلى أو سقطنا من الأعلى إلى الأدنى . الكون كيفما نظر إليه العالم يظل فوق علمه . إن هذا السر العظيم وإن رصدت نجومه بالتلسكوب أو روقبت جواهره الحية بالمكرسكوب أو تحللت أنواره وألوانه بالسبكتر يسكوب يظل سرًّا عظيمًا يموت راعى الغنم فيه كموت سقراط أو سبنسر . وسكوت القبور يناجى سكوت النجوم والإنسان بينهما خيال يزول .

المتعصب على رأس الأشهاد وإن كان من طبقة واطية من الحيوانات الناطقة هو خير من متعصب يتظاهر بالتساهل .

المتعصبون فصيلة غريبة من الحيوانات ذوات الاثنين ومثل سائر الفصائل الحيوانية فيها أنواع وأشكال . وأهم ما هو معروف منها اليوم ما كان كالثعلب أو كالذئب أو كالبزّاقة أو كالعقاب . فالأول جبان يتعصب فى ظلام الليل ويخاف فى ضياء القمر خيال ذنبه . والثانى يفترسك ويفترسنى لو كان بإمكانه إن كنا لانرى ما يراه أولا نصلى وراءه . والثالث لا يهمه من العالم سوى صدفته ونقطة المطر التى يبل فيها قرنه « وحافة » القديس الذى يلتجىء إليها من نور الشمس . وما سوى ذلك فهو لا يدرك شيئًا من وجوده أو مما فوق أو تحت وجوده . والرابع يظل فى الفضاء مترفعًا مترفضًا إلى أن يشم رائحة الجثة فينقض عليها كما لو كانت من المن والسلوى . وهناك نوع آخر قديم العهد . . . فهمت معنى إشارتك وسأقف عند هذا الحد فى التفصيل . . . على أن ذاك المخلوق الشريف الجبار الذى يتعصب لحق الله ودين الله . فوا أسفاه قد انقرض نوعه من زمن طويل ولم يعد لك أن ترى منه إلا العظام فى الأنتكخانة .

* * *

الناس أشباح تحركها الأغراض والأهواء . وتتقاذفها فى بحار الحب والبغض الرياح والأنواء .

الدين دينان دين نظرى ودين عملى . فالدين النظرى إنما هو رغبة الإنسان

فى دوام الحياة الروحية وخشوعه أمام سر الأسرار العظيم وإدراكه أن هناك صلة خفية تربطه بأبديتين إلهيتين . أبدية وراء المهد وأبدية وراء اللحد . والدين العملى الحى إنما هو العمل بنواميس الطبيعة أى شرائع الله المنطبعة على لوح قلب كل إنسان فإن كنت يا أخى من الذين يتقون الله فلست إذاً من الخاسرين . ضع آمالك فى هذه النجوم فوق رأسك وفى هذه القبور تحت قدميك وسر فى طريقك يا أخى ولا تبال . لا تبال بمن يتجنون عليك باسم الدين ويهددونك بغضب السماء وبنار الجحيم إذا كنت لا تعمل بتقاليدهم ولا تسجد لأصنامهم ولا تتمم صلواتهم . سر فى طريقك ولا تبال . أما إذا كنت لا تستطيع أن تعزز جانب نفسك وحريتك فتنصر الحق على الباطل فى كل وقت ومكان وفى أى حال كان — إذا كنت لا تستطيع أن تحافظ على نور الله فى قلبك وعلى عدل الله فى ضميرك فالأوفق لك أن تعود إلى القطيع الذى انفصلت عنه . عد إلى الحظيرة التى خرجت منها فكلب الخراف هناك يحميك فى الأقل من ذئاب الدهريين .

* * *

إن فىّ وفيك شيئاً من السديم وشيئاً مما وراء السديم . بل فىّ وفيك سر أبدى عظيم . لا يكشف الحديث من العلم غامضه ولا القديم .

الجرذان فى قبوك لا يعرفون ما إذا كان القبو ثابتاً إلى الأبد أو إلى حين . ولا يعرفون من شيده ولماذا . إنما هم يعيشون فى زاوية منه أو بالحرى فى ظلماته فيجدّون فى طلب رزقهم ويدافعون عن أنفسهم ويهربون من وجه الحيوانات المتسلطة عليهم فيضاعفون نسلهم ويضاعفون فى ذلك عذابك . هذه زبدة حياتهم ومصلها فى القبو الذى بنيته لنفسك لا لهم . والبشر فى هذه السيارة الصغيرة التى تدعى الأرض إنما هم — جل شأنك — كالجرذان . فإننا نعمل كأحقر المخلوقات فى الظلمات ولا نعرف ما إذا كان العالم ثابتاً إلى الأبد أو إلى حين . ولا نعرف الغاية التى من أجلها شيد هذا القبو الذى يدعى الأرض ولا الغاية من وجودنا فيه فضلا عن قصد البناء العظيم الذى . . . هس ؟ إنما نحن كالجرذان .

على الأديب أن يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه . وكم نقرأ فى الجرائد اليوم من النصح والإرشاد والتنديد والانتقاد فلا نكاد ننتهى من قراءة المقالة حتى نقف مُدهشين عند اسم كاتبها العظيم ما شاء الله! وما ضر هذا الناقد الناصح المرشد لو اختلى فى بيته وقفل الباب جيداً وسد النوافذ بالقطن أو بورق الخرنوب وبدأ بنفسه ، أما ينبغى أن تسمع أذنه صوته ويشعر ضميره بما يجترئ عليه قلمه ؟ أعوذ بالرب الأحد من حارض نقد . ومن النفاثات فى العقد .

لكل نوع من المادة مزية لا تنفصل عنه . لكل نوع منها فضيلة من شأنها الصعود من الأوطى إلى الأعلى . فالغاز مثلاً يتبدد فيتجمد فى الفضاء والماء يتبخر فيتكون غيوماً والأزوت يحل فى النبات فينمو ورقاً وأزهاراً وثماراً . ويحل فى ذوات الأربع فتتنفس وتنشأ وتمشى . ويحل فى الإنسان — وهذه هى العقدة التى لا يحلها عقل الفيلسوف ولا يقطعها سيف الإسكندر فإن كان فى الأزوت جرثومة الفكر والخيال هل تكون هذه الجرثومة كامنة يا ترى فى أوراق الشجر وفى غريزة الحيوان كما تظهر نتائجها فى حياة الإنسان ؟

* * *

إن الغناء الحقيقى لفى الأشياء التى يستطيع المرء أن يستغنى عنها . وسأتولى بنفسى شرح الآية هذه المرة . إذا كنت فقيراً ولم يكن لى رغبة فى نوافل العيش وكشاكشه كالعربات والخيل المطهمة والطنافس والرياش ودواعى الرفاه كلها فأنا إذاً الغنى . وإن كنت متمولاً وكان دخل أموالى لا يكفى لأدب المآدب وإحياء ليالى الرقص والغناء بل لا يكفى لدفع أجور خدامى وعبيدى وساحة خيلى فإنى إذاً لمن الفقراء . كم من الأشياء تغنينا إذا استغنينا عنها وكم من الأشياء تفقرنا إذا طلبناها كالأطفال واستخدمناها كالمجانين !

* * *

فى زخارف المدنية المعبودة . مئة مصيبة منقودة .

قد سئمت الخير الذى يعمله الأتقياء ابتغاء مرضاة الله . قد سئمت الإحسان الذى يتخذه بعضهم مهنة للارتزاق . فما أكثر مثل هؤلاء المحسنين فى

العالم وما أقل الإحسان الحقيقى الخالص من كل ريب . الصافى من كل عيب . قبل أن تكون محسنًا يا هذا أحسن سلوكك وآدابك . قبل أن تعمل مقدار ذرة من الخير كن أنت من بنيه . هناك امرؤ أحسن من المحسن وهو الذى يعيش لنفسه حياة صالحة صافية . هو الذى لا يعرف الخير عند ما يصنعه هو الذى لا يبتغى مرضاة الله ولا مرضاة الناس ولا الشهرة ولا المجد من بره وإحسانه . عد إلى كتب العرب واقرأ فيها قصة عكرمة الفياض يا سيدى الأمير ولا تنس أن تقرأ أيضًا قصة عمر بن الخطاب والعجوز . ومتى حملتك الحمية والغيرة إلى الإحسان فاعمله ليلاً وسرًّا كى لا يراك أحد من الناس فيشوه برك بمديحه وإطرائه . أنقذ الغريق وألبس ثيابك وامش . فإن اللذة فى العمل لا فى نتيجته .

* * *

كلنا فى هذا المجتمع الإنسانى ضائعون . كل منا كالولد التائه فى الغاب يغنى على ليلاه ، لينسى خوفه وشجاه . لكل منا نغمة يترنم بها فتنسيه نوعًا حقيقة حاله . تشغله قليلاً عن نفسه . كلنا بكلمة أوضح مستعبدون للعرض بعيدون عن الجوهر . كلنا نعيش للمنقول لا للمعقول للمصطلح عايه لا لما هو أصلح منه . الطف اللهم بعبادك .

من أجل ما قرأته فى الكتب المقدسة فاتحة القرآن . فهى صلاة جديرة بأن يرددها بقلب حى كل إنسان كل يوم فى السنة .

« إياك [رب العالمين] نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم » — أى والله فإن الإنسان وإن كان من أرقى البريطانيين أو من أرقى العثمانيين إن كان من باريس أو من نيويورك أو من أطنة أو من داهومى هو فى أشد حاجة إلى الهداية اليوم مما كان فى أيام النبى داود . أو فى عهد عاد وثمود .

* * *

إن من يكتفى بمسحة من العلم والحكمة كمن يكتفى بغسل وجهه إذا دخل الحمام . وليس بالأمر الصعب على مثل هذا أن يفوز بقصب السبق إما فى

الثقالة وإما فى الرعونة . وإذا ركب إلى غرضه فرس سيبويه يعود حاملاً فى يده القصبتين . فنقرأ إذ نراه التعويذتين ! .

* * *

قل تبارك السر الذى فىّ ولا تحفل بضجيج الناس وضوضاء الأمم . عش قنوعاً هادئاً ساكتاً معتزلا وواظب على نظافة العقل والقلب كما تواظب على نظافة الجسد فلا تكون من الخاسرين . تلاه فى العمل والنمو عن عقبات الحياة وهمومها . وبكلمة وجيزة كن مثمراً ولو بين القتاد . فلا تحزن يوم يجيئك ملك الحصاد .

لا يختلف اثنان فى أن الأولاد يطلبون الأشياء دون أن يدركوها فيلحون ويلبطون ويصرخون وهم لا يعقلون . ومن الرجال الراشدين من هم أيضاً كالأولاد فيطلبون ما لا يدركون من الأشياء ويصرون على أمورهم ويلبطون على طريقتهم الخاصة إما بالأيدى وإما بالأرجل وإما باللسان وهم أيضاً لا يعقلون. تراهم يروحون ويجيئون دون أن يعرفوا من أين وإلى أين ويركضون ويضجون وهم كالأولاد لأحكام الحلاوى والقضيب خاضعون . هذه خزانة الكعك والحلواء التى يعرفها الأولاد وهذه العصا التى لا يجهلون طعمها إذا هم أكثروا من الرواح والمجىء إلى الخزانة . وكم أناس لو كسرت الحكومة عصاها يموتون أمام خزانة اللذات شهداء الأهواء والشهوات . كم أناس يسرقون الخبيص ويكبرون على البوليص . أعوذ بالرب الجبار . من الصبيان الكبار .

* * *

العواصف تقوّى العواطف وتثيرها . فالنبت الذى تلويه الأهوية وتطويه يكون أشد من ذاك الذى ينمو وينور فى بيوت الزجاج .

* * *

الضغط على الأنفس والعقول إلى حد محدود يولد من القوى الكامنة مالا يخلو من سمو الفكرة والإدراك . وأما إذا تجاوز هذا الحد فيولد اليأس والخمول . وفى اليأس متى انتفضت عنه غبار الخمول قوة خبيثة قتالة لا عقل فيها ولا إدراك .

فى كل إنسان جذوة من الخير لا يخمدها رماد الغواية والضلال مهما تكاثفت

فوقها . فى كل إنسان شىء من الحب والحقيقة مهما أوغل فى المنكرات ونكب عن الصراط المستقيم وإن أنا صافحت مجرمًا فإننى أصافح تلك الجذوة الكامنة تحت رماد شقائه، وذاك القليل من الحب الراقد تحت بلائه. إننى أصافح الشقى الباغى لأنه ساعة يقف أمامى هو من الصالحين ولو إلى حين . ولا يهمنى إذ ذاك ما كان من ماضيه ولا ما سيكون من مستقبله . لا . فإنه لا يصدنى عن مصافحته سيئةٌ أتاها أو جناية اقترفها أو عار أحاق به . ساعة أخذ يده بيدى تتصل كهربية جسمى بجسمه وتؤهله لمصافحتى فى تلك الآونة .

هذا هو المختار من أدب أمين الريحانى نقدمه مائدة شهية للقراء عسى أن يروا فيها ما رأينا والعصمة لله وحده .

المراجع

كتب أمين الريحانى .

الثورة العربية الكبرى . لأمين سعيد .

يقظة العرب . لجور ج أنطونيوس .

أعمدة الحكمة السبعة . للكولونيل لورانس .

حياة البطريرك مار بطرس إلياس الحويك . للخورى إبراهيم حرفوش .

تاريخ لبنان المطوّل ، جزءان . للدكتور يوسف مزهر .

بيروت وتاريخها . للأب لويس شيخو .

الساق على الساق فيما هو الفارياق . لأحمد فارس الشدياق ، طبعة باريس .

المقتطف ج ١ مجلد ٦٥ .

الهلال ج ٦ السنة الـ ٣٠ .

أمين الريحانى . لألبرت الريحانى .

أمين الريحانى . لحارث طه الراوى .

مجلة اقرأ العدد ١٣١ لمارون عبود .

الغربال . لميخائيل نعيمه .

شعراء القصة والوصف فى لبنان . لعيسى ميخائيل سابا .

كتاب علم الأدب . ج ٢ . للأب لويس شيخو .

Zein, Arab - Turkish Relation.